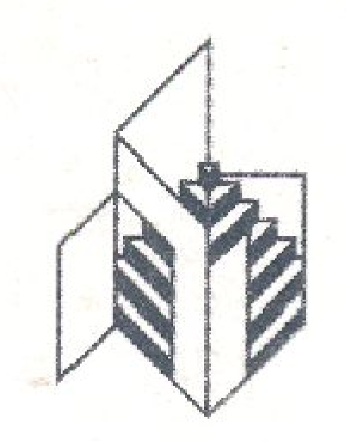


الهيئة العامة لقصور الثقافة



(الصارع) للفنان: سيف وانلى

أشرف الصَبَّاغ





قصص

العطـــــش

قصص

أشـــرف الصـــباغ


الهيئة العامة
لقصور الثقافة

الهيئة العامة لقصور الثقافة
إبداعات / (أسبوعية) / العدد : ١٥٧
العطش/ قصص/ أشرف الصباغ
الطبعة الأولى
رقم الإيداع /١٦٥٥٦/ ٢٠٠٢

المراسلات : باسم رئيس التحرير
على العنوان التالى ١٦ أ ش أمين سامى - القصر العينى
رقم بريدى : ١١٥٦١

١ - قطار درجة ثالثة.
٢ - كف.
٣ - قطرات دافئة.
٤ - الرجل.
٥ - المرآة.

الأشـــبـــاه

قطار درجة ثالثة

شق طريقه بالكاد ..

الناس ينظرون اليه ويزفرون بضيق وتأفف . الصندوق على كتفه يتأرجح، وأصابعه متشبثة به في قوة. وصل الى منتصف العربة، أنزل الصندوق من فوق كتفه واحتضنه ثم جال ببصره فى الوجوه المحيطة.

لم تكن ملابسه قذرة أو ممزقة، وشعر ذقنه الناتئ يكاد يملأ الإنسان شعورا بالخشونة والطيبة معا. دارت عيناه الخضراوان بتوتر، وثمة رعدة خفيفة فى جسده تهز شفتيه بالقشور البيضاء الناشفة عليهما. خرج ضعيفا، لا يتناسب مع حجم الشفتين، فى البداية.. الشوكولاتة... شوكولاتة بورسعيد الأمريكانى. وبحركة مسرحية، أضحكت الجميع، دفع الرجل الواقع عن يساره فكاد يلقى به على امرأة جالسة ترضع طفلها. ولما أراد تكرار الأمر

نفسه مع المرأة الطويلة الضخمة الواقفة عن يمينه كاد يطير هو من نافذة القطار مما أثار نوبة ضحك طويلة بين الجالسين. بسرعة مدهشة انحنى واضعا صندوقه على أرضية العربة، ثم اعتدل رافعا يديه بقطعتين الى أعلى. نظر إلى اللفافتين الحمراوين في يديه، وراح يدير عينيه ببطء في وجوه الركاب . توقفت عيناه على وجه طفل صغير، رسم بسمة واسعة وارتفع صوته.. الواحدة بجنيه.. لكن لكم أنتم بخمسين قرش.. يعنى الاثنين بجنيه...

راحوا ينظرون إليه بفضول ما لبث أن انقلب الى فتور وملل. أداروا رؤوسهم الى الناحية الأخرى، صوب النافذة، وأعمدة التليفون، والمساحات الخضراء تفر الى الوراء. بقيت فقط عيون الصغار معلقة باللفافات الحمراء في يديه الضخمتين المشعرتين. اكتست ملامحه ببسمة ودودة دافئة، وصاح.. أنتم مفلسون؟!... الواحدة بخمسين قرش بس ! ... ولأجل عيون العيال الاثنين بخمسين ... وشرف أبويا أنا خسران ...

لم يناد عليه أحد. وراحت النساء يهمسن في آذان أطفالهن بكلمات كثيرة متناثرة في تودد واستعطاف . بان الفتور على

ملامحه، وتكسرت نظراته الدافئة على مقاومة الركاب الباردة وانشغال الصغار بهمسات أمهاتهن، وبالبيوت والناس التي تجرى هي الأخرى خارج القطار.

من أول العربة ظهر آخر يحمل صندوقه : ملابسه قذرة، وشعره الطويل المنكوش مصبوغ بلون أصفر فاقع، وعلى وجهه بعض الكدمات، بينما كان أنفه مشلفطا تماما. شق طريقه بعنف وسط الزحام . أحاطته نظرات التذمر والاحتجاج، وربما الشماتة والفرحة السرية فى ما يبدو على وجهه من خرابيش وكدمات. انبعث صوته القوى العميق، أجش فى البداية.. جرب وبعدين اشترى... الثلاثة بنص جنيه... الشيكولاته الأمريكانى المعتبرة... ببلاش يا جدعان...

نظر الركاب باهتمام وترقب. تحفزوا لمشاهدة شيء ما ، ربما خمنوه تلقائيا بمجرد أن دخل البائع الثانى. كان الأول متوترا ينظر بغيظ وكره إلى القادم الذى اقتحم عليه سوقه. وكان الثانى يتجاهله وينادى على بضاعته بحركات بهلوانية تحولت فجأة الى حركة غريبة فى أذنيه وأنفه وذقنه أثارت ضحك الكبار والصغار.

اتجه الأول نحو الثانى، اقترب منه . زال خمول السفر وكسله

من عيون الركاب وحل محلهما إحساس بالخطر والترقب، وبللت أطراف الألسنة جوانب الأفواه.

صرخ الأول فى وجه الثانى :

– أنا مشيت من هناك بسببك .. حرام تقطع رزقى يا أخى..

– الثلاثة بخمسين قرش بس... والحرامى يدخل النار.. قال الثانى، ثم نظر الى الركاب، والى وجه الأول المحتقن، وعلى ملامحه غير المتناسقة ابتسامة استفزازية خبيثة ... الرازق ربنا... والأربعة بنص جنيه... يعنى بخمسين قرش بس...

ظهر التحدى على ملامح الأول. رفع صندوقه وحطه على ركبتى أحد الجالسين. فتح ذراعيه عن آخرهما فى الهواء، انطلق صوته ناثرا دفقة ضخمة من الرذاذ على رؤوس الركاب ووجوههم... الخمسة بنص جنيه... يعنى الواحدة بعشرة صاغ... الحرامى يدخل النار...

نظر الركاب الى بعضهم البعض فى دهشة، وراحت النساء يمصمصن شفاههن فى عطف واشفاق. قالت امرأة :

– يا حرام... الشاب حايبيع بالخسارة..

– منه لله أبو خلقة مشلفطة – قالت امرأة ثانية، وأخرجت

يدها من صدرها بكيس النقود، فى حين كانت الأولى قد اشترت بثلاثة جنيهات كاملة.

قال رجل :

- هو حرُ ..

- ودفع للبائع خمسة جنيهات ثمنا لعلبة مقفولة.

انتهز الجميع الفرصة، وراحوا يشترون كميات ضخمة وعلى وجوههم سعادة نادرة. وفجأة انطلق صوت البائع الثانى حادا وقويا... الاثنين بعشرة صاغ... يعنى العشرين بجنيه... والعوض على الله..

توقف الشراء، وراح الأول يسب الثانى ويلعنه، ثم حمل صندوقه شبه الفارغ متجها صوب العربة التالية ويده تتحسس جيبه برضاء، بينما راح الثانى يلبى نداءات الركاب المتوالية فى خفة وعجلة، وبين الحين والآخر ينظر نحو العربة التى ذهب اليها البائع الأول وعلى ملامحه ابتسامة عريضة تتسع، وتزداد كلما سمع الصوت الآتى من هناك يردد... يردد الاثنين بجنيه... ولكم انتم الاثنين بخمسين قرش....

كـف

فتح عينيه، كعادته، فى الحادية عشرة. وجد الخادمة منحنية أمـامـه ويدها ممدودة بملعقة العسل اليومية، وبالأخرى طبق مملوء بالجوز واللوز والفستق. بعد قليل دخلت المرضة ودلكت جسده لمدة عشر دقائق، وما كادت تخرج حتى دلف من الباب الثانى لغرفة نومه خادم عجوز طويل أشيب يحمل صينية فضية عليها كوب حليب طويل، وطبقان من الكريستال فى أحدهما زبيب، وفى الآخر بعض المكسرات والحلوى.

تناول الرموت كنترول من فوق الكوميدينو. ضغط فى وخم على أحد الأزرار، فانفتحت الستائر بإيقاع موسيقى هادئ : كانت السماء صافية زرقاء تتحرك على وجهها سحب بيضاء بلون الحليب، وطيور مختلفة بدون أصوات تطير فى اتجاهات متعاكسة ومتقاطعة، وبعضها يتقافز فى دلال وانشراح على الإفريز الخارجى العريض للنافذة.

نهض من فراشه متثائبا. اقترب من النافذة الزجاجية الضخمة التى احتلت الجدار بأكمله. تمطى ، أخذ نفسا عميقا، وراح يمسح ببصره المساحة الشاسعة المغطاة بالحشائش والخضرة والأشجار. توقفت عيناه قليلا على حمام السباحة الدائرى، وأخذ يتأمل تكسر أشعة الشمس على جدرانه المرمرية المطعمة بالأصداف مختلفة الألوان، يحدق فى الرسوم الخرافية - عبر طبقات المياه الشفافة - على القاع الأبيض . طافت بخياله ذكريات قديمة وجديدة، ابتسم، تنفس بعمق وراحة، تمنى لو يجد الآن طريقة لفتح نافذة صغيرة فى هذا الجدار الزجاجى الكبير. لمحته احدى الخادمات أثناء تنظيفها حول تعريشة العنب فى الطرف البعيد من الفيللا، انحنت وعلى وجهها ابتسامة واسعة هادئة، وبشوشة. أدار وجهه ناحية الجناينى الذى كان يجمع البرتقال والليمون، راح يتأمل اللون الأصفر تحت أشعة الشمس. أغمض عينيه، أخذ نفسا عميقا، وتمطى ثم ابتسم فى ارتياح. ما كاد يستدير حتى اعتراه توتر داخلى حاد، وتقلصت ملامحه حين تعثر الجناينى العجوز وهوى جسده النحيف الهش على الأرض ومن تحته بعض حبات اليوسفى التى انفجرت

واندفعت احشاؤها الى الخارج. هز رأسه، ضرب كفا بكف، أراد أن يصرخ فيه، ولكنه نظر الى النافذة الزجاجية الكبيرة وقلبه يكاد يعتصر.

خرج من الحمام. وجد الصحف على صينية فضية مستطيلة بيدين مذهبتين فوق الطاولة الزجاجية الصغيرة ذات الثلاثة طوابق. تصفح عناوين الصفحة الأولى مبتسما، وبلا اكتراث. قلب الصحيفة ومر بعينيه على العناوين والصور الكبيرة فى الصفحة الأخيرة دون مبالاة. بيد مدربة فتح على صفحة فى المنتصف، ضيق عينيه، تابع بدقة واهتمام، ظهر بعض الضيق على ملامحه، اقترب من جهاز الكمبيوتر، شغّله بيد مرتعشة، راح يطالع أشياء، يتأملها بدقة، ويجرى عمليات، ثم ابتسم بظفر. تناول جهاز التليفون الصغير، أجرى مكالمة عاجلة بصوت حاسم متوتر، وآمر، اختتمها بأنه سوف يصل بعد قليل. وراح يلعن فى نفسه رجال الأعمال المحليين الجهلة، والأموال، والموظفين، ثم نظر بسخرية الى لوحة فخمة لامرأة عارية فوق فراش نومه.

أمر السائق أن يضع شريط المطرب الجديد قمر بحبوحة.

أراح رأسه على مسند المقعد الخلفى، راح يتابع الكلمات الحزينة الملتاعة فى استرخاء، والموسيقى تتخلل كل مسامات جلده فتعذب روحه وتضنيه. تذكر أمجد، وقال فى نفسه : يا ترى ماذا يفعل الآن فى اليونان.. مسكين، لابد أن الثمانية آلاف دولار لم تكفه. هز رأسه على إيقاعات الموسيقى الصاخبة... عموما فالاجازة قاربت على نهايتها، وسيعود قريبا... سيفرح بالفولفو الجديدة هدية نجاحه فى الثانوية. قلب السائق الشريط . صدح الصوت الحزين المبحوح بموال يفصد حنايا القلب ويبعث على الأسى، والنحيب الذى لاحت اماراته على ملامح السائق الذى يحرك شفتيه مع الكلمات الحزينة. تذكر ايناس وأمها. ابتسم... لا داعى للقلق، فمع كل منهما الكريدت كارت الخاص بها... وعموما فأسبانيا ليست من الدول عالية الأسعار. فجأة عاودته صورة أمجد، فأمر السائق بالمرور على البنك، و .... شعر بكف أبيه الثقيلة تنزل على ظهره:

– فز يا ابن .... الساعة بقت سبعة.

ومن الداخل جاء صوت أمه ضاحكا ومداعبا:

– ابقى اتغطى كويس وانت نايم يا واد .. هئ .. هئ .. هئ

قطرات دافئة

بعينين حمراوين عكرتين، وبجفنين قاتمين متهدلين يعود دائما فى ليل الزقاق الذى لا تضيئه مصابيح. ودوما يخرج فى صباحه المعتم الشبيه بجدران بيوته ووجوه ناسه ونظراتهم، وربما الشبيه – على وجه التقريب – بملابسهم طوال السنة باستثناء أيام الأعياد القليلة التى تبدو فيها تلك الملابس وكأنها ليست لهم.

بعينين صباحيتين نصف مغمضتين قطع المسافة من عزبة القرود الى محطة قطار غبريال فى دقائق قليلة متعجلة عبر الخرابة وأكوام الزبالة المجاورة لعشش الغجر . تعثر مرة واحدة فى بالوعة شبه مغلقة عند التقاء الزقاق بالحارة الكبيرة، وفى الخرابة اصطدم برجل عجوز نهره على عجل ولعن أمه مندهشا ومتأففا.

اندس بجسده الضئيل بين الركاب، أزاحوه - فى طريقهم - الى داخل عربة القطار المكتظة بكتلة لحم واحدة تترجرج فى استسلام وغيبوبة على دقات منتظمة تشبه دقات الزار. ألقى بنفسه على الباب المغلق من الجهة الأخرى وأغمض عينيه. ناوشته أحلامه الصباحية، ومن بعيد راحت تراوغه بلذة مستحكمة تلك الأفكار التى تعشش فى رأسه، ولكنه لم يتمكن من استرجاع أو استكمال أى منها.

فتح عينيه بعد أن تجاوز القطار محطة المندرة. تخطت نظراته الشريط الرملى الضيق، امتدت فوق التجاعيد الداكنة المتحركة تباعا، استطالت حتى ارتطمت ببعض الصخور الناتئة والبراميل الحمراء البعيدة فى عرض البحر . راح يراقب اللون الرمادى المنتشر فى الفراغ حتى تاهت نظراته بين ثنايا الأمواج المتلاطمة فى صخب . اصطدمت عيناه بسور قصر المنتزه الأصفر الباهت. انسل من بين الأجساد المتلاحمة، واقترب من الباب. ركن بكتفه على الحافة العريضة، سرحت عيناه فى هدوء نحو اللون الأصفر المتآكل للسور العالى الضخم، اخترقتاه فى بطء وتأمل.. خرج من البنك، فى بدلته الأنيقة، منفرج الأسارير،

ابتسم لجندى الحراسة القروى الأسمر الواقف على الباب، مد يده بورقة مالية على استحياء لشحاذ عجوز يقبع على الرصيف وتمتم ببضع كلمات فى ورع وتقوى، واحمر وجهه عندما شعر بنظرات الناس تحيطه باحترام... كان السائق مشغولا بتشغيل أحد الأشرطة المحببة فلم ينزل لفتح الباب، وفوجئ بصوت حاد متوعد: شغّل قرآن يا حيوان. وفى المقعد الخلفي تردد الصوت فى هدوء : هم زينة الحياة الدنيا، ثم أمره بالتوجه الى اليخت الجديد، وبسرعة ليلحق بموعد الزبائن الأجانب الذي... ودفعه المحصل برفق. قفز الى الرصيف. تلفت حوله مذعورا، لمح المقهى، والبيوت القصيرة المتهالكة، وطابية أبى قير العالية الضخمة. تنفس فى يأس بينما شيعه المحصل بابتسامة بشوشة ونظرة ساخرة. وقال عجوز يتابع الموقف من بعيد :

– جيل مساطيل ولاد كلب.. اللهم احفظنا..

راح الجسد الصغير يتقافز مسرعا فوق القضبان للعبور الى الجانب الآخر واللحاق بقطار العودة الى المنتزه.

فى الطريق الى الورشة تقمصته رجفة قوية فصدّت العرق على ظهره، وراح جسده كله يرتجف . فكر فى العودة الى

البيت، ولكنه تذكر وجه أبيه فازدادت رجفته. من بعيد حاصرته نظرات الأسطى خميس، نفذت الى داخله، اعتصرت شيئا ما فى صدره، وثمة صدى ساخر ومؤنب يطنطن في رأسه ويخلخل الهواء من حوله :

– بدرى ياروح ماما ...

وشعر بقطرات دافئة تبلل فخذيه.

الرجـل

هب من نومه فجأة. دفعة واحدة اعتدل جالسا، تلفت حوله في عتمة الصالة الضيقة كما لو كان يتأكد من وجود، أو عدم وجود، شيء بعينه. دعك عينيه وراح يبحلق مرة ثانية. ولما اطمأن نهض متعثرا نحو دورة المياه، وصوت خطوات الأم يأتي خفيفا وحذرا كما في الحلم. وقف مستندا الى الباب المفتوح وراح يتبول مغمض العينين. لم يستطع مقاومة غفوة رقيقة هادئة، وخاطفة حطت عليه. واستراح رأسه الصغير الحليق المليء بالندوب على الباب في سكينة. وأتاه صوت خافق من حلمه الصباحي... ربما يأتي اليوم. وتردد صدى أكثر خفقانا وتصاعدا... ربما يكون مريضا أو مسافرا، وربما يكون قد رحل أو مات. وأصابته رجفة خفيفة... في المرة الأولى، مر مرتديا معطفا داكنا ومغبرا، وطاقية تبدو بنية أو خضراء مترهلة بها

ثقوب متفاوتة الأشكال والأحجام تغطى رأسه وجبهته وجزءا من أذنيه الكبيرتين المفرطحتين. كان يسير ببطء ناظرا الى أسفل، صوب نقطة ما على الأرض - أمام قدميه مباشرة - تتحرك بنفس ايقاع خطواته، وبين شفتيه سيجارة مشتعلة تقارب على الانتهاء. بعد عدة مرات، صار جزءا من صباحات الزقاق المعتمة، قطعة من غبشته الصباحية الدائمة ووجوه ناسه، وأشكال طلاءاته الخرافية المتساقطة، ورائحة البالوعة التى تبدو مغلقة على ناصية الزقاق عند تقاطعه مع الحارة الكبيرة. رآه مرة فى الحلم بوجه أبيض ولحية بيضاء، يرتدى ملابس بيضاء ويحمل كيسا أبيض، ابتسم له ومسح على رأسه ثم تلاشى. تكرر الحلم، وانقلب اللون الأبيض الى الأخضر ثم الأحمر. وعندما جاءه الحلم باللون الأسود، دفعه شيطانه فى ذلك الصباح الى الاقتراب منه كى يتبين ملامحه التى لم ترد أبدا فى الحلم : كان وجهه رفيعا مغطي بالشعر الأسود الكثيف، وعيناه حمراوين صغيرتين، وأنفه أفطس ناتئا، وتبدو بقايا السيجارة المشتعلة، على الدوام، فى فمه كما لو كانت جزءا من شفتيه الغليظتين المبقعتين باللون الأزرق. لحظتها ارتد جسده الصغير

الى الوراء فى آلية ووجل، وفى نفس تلك اللحظة انطلق صوته، أو هكذا خيل اليه، واجفا مترددا بحروف وكلمات غير مترابطة. فتمتم الرجل، بصوت عريض متحشرج، بكلمات بطيئة متناثرة بدت ردا على تحية ما، ولم يلتفت صوب الملامح المختلطة المتوجسة التى تعتورها ارتجافة شديدة تحت الجلد. فى الصباح التالى ألقى عليه التحية باسما فى تردد خفيف. نظر الرجل فى وجهه مباشرة، وقبل أن ينهى رده ، وقعت السيجارة من فمه، وافترت شفتاه عن ابتسامة هادئة غريبة كشفت عن أسنان سوداء مهشمة، وراح يسعل بشدة.

صار كل منهما جزءا من صباح الآخر: الصغير يمسح عينيه بعد كف أو ركلة الصباح، يقبع منتظرا خلف الباب، مراقبا الشارع، والرجل يأتى مهرولا حتى منتصف الزقاق، وقبل الباب بمسافة قصيرة يهدئ من خطواته. يبرز الجسد الصغير، تتلاقى بسمتان، تتضافران فى المسافة الضيقة بين ملامح اعتادت بعضها البعض، يتبادلان الكلمات التى لا يقطعها سوى سعال الرجل الجاف الشديد، ويفترقان عند التقاء الزقاق بالحارة الكبيرة. فى كل مرة كان كل منهما يرى فى الآخر أشياء جديدة،

وكان سعال الرجل يزداد ويشتد والسيجارة لا تفارق فمه. وفى المرة الأخيرة، فى العيد قبل الماضى، مد الرجل يده السمراء الخشنة ذات الاصبعين ببالونة زرقاء كبيرة، وابتسم بينما ظلت يده الثانية قابضة بحرص على بالونة أخرى حمراء. قال كل منهم للآخر : كل سنة وانت طيب. فجحظت عينا الصغير، وارتجفت شفتا الرجل.

ظل يستيقظ قبل مواعيده ، يقف وراء الباب الخارجى، يراقب الزقاق، ينسى أشياء كثيرة كل يوم ويعود ليأخذها، يتعرض لتقريع الأم وركلات الأب كل صباح، ولكنه كان دائما ينسى تلك الأشياء المزعومة ليعود و ... زغدته الأم بكوعها محذرة، فى حين توالت نحنحات أبيه كعادته قبل النهوض. خطف لقمتين من طبق الفول فى عجلة، وارتدى ملابسه قبل خروج الأب من غرفته. وفى عتمة الزقاق الصباحية راح يحدق فى المسافة المغبشة بينه وبين النهاية البعيدة، ثم تنهد وانطلق. وقبل أن ينحرف الى الحارة الكبيرة التفت الى الوراء، وألقى نظرة خاطفة متفحصة على النهاية البعيدة للزقاق.

المـــــرأة

ألقى حسن التحية فى هدوء وتردد.

- برميل جديد؟! - قال فى دهشة متفاديا النظرات القاسية المؤنبة بسبب تأخيره.

أمسك الأسطى خميس بالمنشار الكهربائى فى قوة، وقال محذرا:

- ثبت ركبك فى النص، وأمسك من الحرف.

انفلق البرميل الى نصفين طوليين بالتساوى. حمل حسن أحدهما بصعوبة، وكان أطول وأضخم من جسده النحيل الذى ينز عرقا، وأسنده الى فردة كاوتش كبيرة أمام باب الورشة، بينما حمل خميس النصف الثانى بخفة ونشاط الى الداخل.

ضغط كل منهما على طرفي نصف البرميل بقوة، وراحا يعدلان من وضعه فوق صفوف الطوب والكاوتش المرصوصة،

بطريقة معينة تجعل ما فوقها يثبت اذا ما تم وضعه باهتمام وحرص، حتى استقر فى مكانه لا يتزحزح.

– النص القديم كان فيه مليون خرم.. – قال خميس ضاحكا، وفتح الحنفية برضاء، فاندفع الماء عبر الخرطوم الأسود الرفيع الى نصف البرميل المثبت جيدا فى الركن البعيد تحت المكواة المعلقة على الجدار.

بعين خبيرة مدربة قاس حسن ارتفاع الماء فى البرميل. ولما اطمأن الى المستوى الذى لن يسمح بفيضان المياه اذا ما غطس فيها الكاوتش الداخلى بأى حجم، من أجل معرفة مواضع الثقوب، سحب طرف الخرطوم ، وجره خلفه الى الشارع. نظر يمينا ويسارا، ضغط على الفوهة الطرى، فاندفع خيط المياه القوى متقوسا يلمع تحت أشعة الشمس عبر الشارع . راح يرش كل ما يطوله خيط الماء المندفع وبين الحين والآخر يضغط على الفوهة بقوة حتى يزداد ضغط الماء فى الخرطوم، ويندفع الخيط الى هناك، نحو الخرابة المقابلة لتهدئة الروائح والأدخنة المتصاعدة من أكوام الزبالة العالية، وتطفيش القطط والكلاب المتزاحمة فوقها، وابتسامة عذبة رقيقة تغطى الندوب الكثيرة

المتناثرة على جبهته ووجنتيه، وتزداد وتتسع كلما طال خيط الماء قطة أو كلبا. ظل يرش باستمتاع، اندمج فى اللعب مع القطط والكلاب التى راحت تتقافز وتتواثب هنا وهناك، وتتسابق للوقوع فى دوائر المياه التى راح يصنعها حسن بمهارة ضاحكا بشدة حتى أغرورقت عيناه بدموع خفيفة مرحة..

– كفاية ياد يا ابن الـ .. يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم –

قال الأسطى خميس بصوت جهورى مرعب، وأضاف منذرا :

– اقفل الحنفية وهات المرزّبة الكبيرة..

كاد حسن من شدة ارتجافه يتعثر فى طريقه الى الداخل. بفردة كاوتش صغيرة ملقاة الى جوار نصف البرميل. استوقفته صفحة المياه الرائقة، اقترب فى حيطة وحذر، نظر كالمجذوب، بحلق فى دهشة ووجل، حملق فى الوجه الأسمر العكر ، فى الملامح المختلطة المراوغة وثمة شفة غليظة زرقاء متهدلة تكشف عن أسنان سوداء مهشمة، وتفصح عن مشروع ابتسامة بلهاء ليس لها معنى فى العينين الضيقتين.

١ - الحريق.
٢ - الحصار.
٣ - قطار الجنود.
٤ - الدوامة.

ينـــاير

الحريق

... فى ظلمة الليل، رأى العنابر والأجساد الصغيرة المستسلمة للنوم. شم رائحة دورات المياه فى عتمة الممرات الطويلة الضيقة، وسمع همسات وأنفاسا مذعورة وصوت طرقعات قطرات الماء من الحنفيات الصدئة فى الحمامات المتهدمة. لمح الجسد الصغير الهش يتسلل فى هدوء وحرص ناحية السور العالى الضخم، وخيل له أن للنجوم نقيقا مثل الضفادع والمشرفين والحراس ، وأن عتمة الليل البارد تحيل الأصوات الى نقيضها. تسلق الأسوار العالية وقفز من فوقها بلا رجعة. ترك الأحلام الباهتة المغبشة، والكوابيس المفزعة، والأفكار السوداء المختلطة. خلع عن ذاكرته عباءة الأسماء والأشكال، وعراها من تلك الموجات الهلامية الشفافة التى تختزن بداخلها

صورا ومشاهد مبتورة تظهر وتختفى سريعا عن طفل لا يذكر سوى وجهه الأسمر الصدىء المليئ بالقروح والندوب والعروق السوداء والزرقاء، وعينيه السوداوين البراقتين، وقلبه الذى يدق بعنف وخوف، ويخفق بترقب بين قفص من الضلوع الهشة المليئة بآثار جروح وكدمات قديمة، ولا أم أو أخت أو جدة.

فى تلك الليلة من برد يناير القارس ورياحه التى تشقق الجلد وتدميه وتغطيه بالقشف، راح يتقلب فى مكمنه البعيد عن الصالة الكبيرة المزدحمة بالحقائب والمسافرين والمتسكعين، وعن الأرصفة الطويلة والجموع الرائحة والغادية عليها. تناوبت عليه كوابيس سوداء ثقيلة أقلقته وجعلته ينهض بين الحين والآخر يهذى بين اليقظة والنوم : ليلة سودا من أولها. ويظل برأسه الصغير من فتحة ضيقة فى باب عربة قطار البضاعة القديمة المتوارية خلف أحد المخازن المهجورة بالطرف البعيد عن صالة الركاب والقطارات المنتظرة. ولما اطمأن الى أن الخشخشات والهمهمات، وتلك الأصوات المريبة ليست لانسان، أزاح الباب بصعوبة وهدوء وترقب، وأخذ يتبول بآلية. تنهد بعمق، وعاد فاستلقى مرة ثانية على قش الرز والخرق البالية المفروشة بعناية

مـعـدلا تحت رأسـه الحـذاء الميـرى الملفـوف فى فـانلة وسـتـرة عسكريتين سرقهما بالأمس من تحت احدى العربات الواقفة فى سوق أحمد حلمى.

... خلّف وراءه فـصـول الـتـعليم، وورش النجـارة والسبـاكـة، والمعاملة الخشنة والضرب المبرح والمراودة عن النفس. اجتاز فى ظلمة ليلة باردة خط الحدود الوهمى الشفاف بين عالمين أولهما مرٌ ذاقه ويعرفه، والثانى سمع عنه القصص والحكايات، وشاهد صـوره فى الكتب وعلى شـاشـات التلفـزيون القـديم، وأتاه فى الحلم ليلا ونـهـارا، وفى يقظاته المتقطعـة... حـملق فى السـحنة المتناقـضـة بملامحـها غيـر المتناسـقة، ركـز بصـره على الرأس الصغير الحليق الشبيه بشمامة طويلة مركبا على كتفين نحيلين وهو يفكر وحـده، ويقـرر دون الاتفـاق مع أحـد... تابعـه خطوة بخطوة وهو يثب من فوق السور، وعندما لامست قدماه الأرض الجديدة، وعندمـا انطلق فى اتجـاهات لا يعـرفـهـا، الى حـوارى وأزقـة وشـوارع كـان يراها غـيـر ذلك فى أحـلامـه. سـمـعـه وهو يندهش مرددا .. ياا....ه! ثم تاه فى محطة اللاجئين الأولى - والأخـيـرة، وربما الأبدية - المزدحـمـة دومـا بسكانـهـا الغـربـاء

ولصوصها ومخبريها السريين والعلنيين، والأكشاك الصغيرة المتناثرة كالوباء فى شوارعها وحواريها وميادينها، والعربات الكارو وعربات اليد الصغيرة والدراجات المنتشرة فى كل الأزقة والشوارع... ومازالت تتردد على شفتيه أول أبجديات الدهشة.. ياا ا...ه!

قبيل الفجر، فى غبشة تلك اللحظات الشتوية الخارجة عن الزمن، راح يهذى بحروف متناثرة متصورا أنه تخلص من كابوس. تحسس وجهه الملتهب، اهتز جسده بعنف وسالت آهة مفزوعة مع لعابه المختلط بعرقه الدافئ. شعر بحرقة وألم شديدين فى معدته، وتقلصات حادة فى أمعائه. تذكر أنه لم يأكل شيئا منذ الأمس. طالعته سحنة المخبر الذى سد عليه باب المحطة، تذكر فشله فى التسلل الى موقف أحمد حلمى، وخوفه من تسلق السور المطل على شارع رمسيس حينما شاهد الحركة غير العادية لعساكر الجيش الكثيرين وعربات الشرطة العسكرية وعودته مفضلا الجوع على الوقوع فى أيديهم، واكتفى بملء الزجاجة البلاستيك من الحنفية الكبيرة المفتوحة باستمرار خلف غرفة الحارس الذى يحشش دائما بالداخل.

راح فى غيبوبة... انطلق وسط أحاسيس متضاربة نحو الضوء. رأى مقاهى تحت الأرض وفوقها، وأخرى تعلو الأرض قليلا . مر على غرز للحشيش وأخرى للخمر، ومرت عليه عشش صغيرة، وبيوت متكئة على بعضها البعض من طابقين وثلاثة وخمسة. تأمل السحنات المتباينة فى الحوارى والأزقة، ورأى رجالا يتمخطون بحرية، ويبصقون كيفما اتفق فتتعلق البصقة - المخاطية السوداء بجلباب عابر أو عابرة، أو تلتصق بوجه طفل وربما بقفاه. رأى براز الكلاب والأولاد والماعز بجوار الجدران، وشم رائحة العطن وبول القطط والناس والكلاب، وشاهد نوادى ومسارح وكازينوهات، وأطفالا حمر الوجوه على شفاههم بسمات دائمة ونزق حلو شفاف، ونساء حور العين والفم والأسنان، قدودهن غير التى كان يراها هناك بين الطباخات والمشرفات الاجتماعيات والمدرسات، ورجالا تبدو عليهم مظاهر النعمة بشعور مسبسبة أو بصلعات حمراء لامعة نظيفة، وأيد بضة ناعمة، تبدو على ملامحهم سمات الرفعة والكبرياء والانشغال بأمور هامة.

ويروح في غيبوبة ثانية وثالثة... وعاشرة، تأخذه الطرق الى المبنى الأصفر الكبير الباهت الذى يقف أمامه تمثال ضخم لا يذكر اسمه...

– ياا...ه ! – تخرج من صدره عبر الحلق بفحيح ، ولا أحد يعرف هل تحمل دهشة أم هما ثقيلا رازحا فوق تلك الروح الشفافة، ولكنه يحملها كل مفردات قاموسه.

– ياااه...ه ! – ويرى الأبيض والأسود والقمحى، والبدل والجلاليب والقمصان، يعرف فيها ملامح الصعيدى والسويسى والمنوفي والاسكندراني، يرى اللصوص والنصابين واللوطيين والجنود والمخبرين والنشالين والبغايا والشيوخ والشحاذين والحشاشين، ويرى نهاية غزوته لعالم الشيالين تنتهى بعلقة ساخنة ينام بعدها عدة أيام خلف مخزن القطارات بدون طعام أو شراب إلا ما كان يستولى عليه خلسة من بقايا طعام الملاحظ / المحولجي / الحارس الذى كان يقضى ورديته اما نائما يشخر في حجرته الخشبية بجوار المخزن، أو يحشش مع أحد المخبرين أو الشيالين بالداخل.

كجرو صغير راح يتنفس بضعف. اشتد عليه الألم، كزّ على

أسنانه وتحولت همهماته وحشرجاته الى صوت أنين غريب يتراوح ما بين العواء المكتوم والمواء الكئيب. أخذ يطالع، بين الحين والآخر، بعينين حمراوين عكرتين التهبت أجفانها نحو شق فى جدار العربة المقابل لعله يلمح بصيصا من ضوء صباحى. تناول زجاجة الماء، رفعها دفعة واحدة، تساقطت بضع قطرات على صدره أفقدته الرغبة فى الشرب، وجعلته يقذف بها فى حنق بعيدا لتصطدم بجدار العربة وتتصدر فوضى من الأصوات انخلع لها قلبه، بينما انطلق من صدره فحيح مكتوم. راح فى ما يشبه غيبوبة قصيرة، لا هى بالنوم ولا باليقظة، فتح عينيه مرة، ومرات فى إجهاد. نهض متقوسا: يد على معدته، والأخرى على أسفل بطنه. أزاح الباب قليلا، لم ير نورا ولا ظلاما : سماء رمادية على نحو ما، والخلاء المحيط بنى قاتم على نحو يثير الاشمئزاز والتقزز ويبث فى الروح يأسا وكسلا ولا مبالاة. لسعته الريح الباردة وأثارت رعشة حادة فى ظهره ومؤخرته التى بدأت تؤلمه منذ الأمس. وثب بخفة وضعف، كاد يتعثر ، حاول السير معتدلا. وهناك فى الخلاء الواسع أنزل بنطلونه وقرفص واضعا رأسه بين كفيه. راح يحزق بقوة

وأنفاسه تتردد حارة متعثرة حتى دمعت عيناه من الألم.

زنق ظهره فى زاوية العربة بعد أن أحاط قدميه بالقش ومزق الخيش البالية. أحاط ركبتيه بذراعيه الرفيعتين وأسند اليهما جبهته الملتهبة، انفتح فى ذاكرته المتجمدة جحر عميق مظلم... هل طرده صاحب الفرن أم هرب من ضرب الأسطوات وسخريتهم، ومن سخونة الأرغفة واللهيب الحارق ، أم أنهم أغلقوا الفرن لسبب ما لا يعرفه، ولا يعرفه أحد آخر ؟!... أم أن الذى ربت على مؤخرته الرفيعة فى خبث ورغبة كان صاحب البار، أم ابنه، أم أحد السكارى؟!... وفر من البار، ومن الأقصر كلها بعد أن باع لحسابه بضع زجاجات من الخمر المغشوشة، وسرق اثنين من السكارى، واستولى على ما فى درج صاحب البار من نقود... ومن نافذة بالطابق الثانى قفز بعد ما اصطحبته امرأة يونانية بالاسكندرية الى شقتها فنظفته وأطعمته – ثم خرجت لاهثة لتغلق باب الشقة بالمفتاح ممنية نفسها بليلة دافئة تجرب فيها طعم اللذة .

تملكه احساس قاس بالعطش تغلب على خوفه وجوعه، وأطاح ببقايا رعشة ضعيفة فى مفاصله وظهره. تناول الزجاجة

البلاستيك واتجه نحو حنفية المياه تاركا حذره وجوعه وأفكاره السوداء داخل العربة المظلمة. شرب ثم وضع رأسه تحت سيل الماء المتدفق..

- يا ابن القبيحة .

لم يسمع صوت الحارس الذى لمحه من بعيد. كان جسده قد استلذ برودة الماء، واستساغ ضرباته المزغردة على مؤخرة رأسه وقفاه. زاحت حرارته تنسال مع المياه بهدوء، سيطر عليه احساس غريب ولذيذ جعله يدندن بكلمات غير مترابطة..

- بتطلعوا منين يا عفاريت الجبانة يا اولاد الكلب ؟...

وأطاحت به ركلة الحارس نحو بقايا جدار منخفض متهدم. صدر صوت ارتطام مكتوم وآهة فزعة. طار حجر مكسور من حافة الجدار، وانحشر كوعه الرفيع بين بعض الأحجار المكتومة. انفلتت من صدره صرخة ملتاثة، انقلبت الى عواء مؤلم، وتناثر لعابه على شفتيه مختلطا بقطرات الماء على وجهه متقلص الملامح، تناول الحارس الزجاجة الفارغة وهجم عليه. تكسرت الزجاجة، وتوالت الصفعات والركلات والشتائم. الجسد الهزيل يسعى الى الفرار، والبدن الضخم يسد عليه كل الطرق والمنافذ،

يكيل له اللكمات والسباب. الجسد الصغير يزوغ ويراوغ ويتعثر، واليدان القويتان تحاولان القبض عليه، ولكنه يندفع كالسهم حين يتعثر البدن الغليظ فى الحجارة وفى ثقته الكبيرة، وينطلق صوته - من بعيد - رفيعا ومنتصرا وشامتا :

- يا ابن الكلب يا مفترى..

- وحياة أمك لأمسكك - قال الحارس زاعقا فى غيظ ، وراح ينفض التراب عن ملابسه، ويلعن الحجارة والحنفية.

ظل طوال النهار قابعا فى انتظار شىء ما يثير فى نفسه الرعب. وبعد أن استحال لون الأفق الكابى بشحوبه وقتامته الى عتمة دامسة، انطلق قافزا السور الحديدى القصير نحو موقف أحمد حلمى وآثار الرضوض والكدمات واضحة على وجهه ورقبته. راح يلوك ما لمه من بقايا ساندوتشات وطرشى وهو يتسكع بحذر. اتجه نحو القللى وشىء من الرضا على ملامحه المتغضنة رغم آلامه وأوجاعه وما يعتوره من ضيق وقلق.

فى المسافة بين موقف أحمد حلمى والقللى، على الكوبرى القديم المتهالك المبلط بالبازلت الذى استحال لونه الأسود الى لون ترابى قاتم تغطيه مصاصة القصب وقشر البرتقال

والباذنجان، وأعواد البرسيم والملوخية وأوراق الكرنب والتبن، وروث البغال التى تجر عربات الكارو، راح يسير بملل واضح سارحا ببصره الى داخل نفسه. لم يكن يشعر بقرقعات عجلات العربات الكارو وحوافر الحمير والبغال على الكوبرى، ولا بحركة الاتوبيسات القديمة المشوهة تنفث دخانها الأسود من الخلف، وتلقى بالأجساد المتعبة المتصببة عرقا من بطنها المزدحم بالكتاب البشرية، ولا بصياح العساكر وهرجهم أو بصراخ المنادين على بضائعهم وعلى ركاب عربات الأقاليم المرصوصة على جانبى الكوبرى. كان تفكيره منصبا على نقطة ناتئة خشنة :لابد من تغيير هذه العربة الملعونة والاختفاء من محطة مصر. وقبل أن ينحرف يمينا لمح ذلك الوجه الذى يبث فى نفسه الرعب، ويثير فى جسده الرهبة والقشعريرة..

– معقول المخبرين قد الناس! – تمتم، وشعور بالغثيان يقلب معدته. وقبل أن تصطدم عينا المخبر الصغير الناشف بعينيه كان قد ذاب سريعا فى الزحام.

اعترته رجفة خفيفة، وبدلا من دخول المطعم الكبير للحصول على رغيف ، أو بقايا عشاء على احدى الطاولات، اتجه بحذر وتوجس ناحية احدى عربات الفول الواقفة وسط دائرة من الصعايدة وعساكر الجيش. تسلل فى هدوء بين الأجساد الكثيرة الضخمة، مد يده بحذر ناحية رغيف على طرف القفص، ابتسم أحد الواقفين وأدار وجهه. كانت يد البائع أقرب الى الرغيف من يده، قبضت عليها بقوة، وانطلقت زعقة عالية مبحوحة :

– مسكته ابن الحرام.. كل يوم...

لم يكن البائع فى حاجة لأكثر من ذلك. ظهر ثلاثة مخبرين دفعة واحدة، سدوا الطريق على الجسد الصغير، وتفرق الناس. كان جسده يرتجف. نظر حوله ، لمحهم، ميز عيونهم وملابسهم وخطواتهم الواثقة، استسلم للأمر، فخفت قبضة البائع على يده الصغيرة العرقة، وفجأة انتزعها وانفلت مطلقا ساقيه للريح، مصطدما بالناس والأشياء فى طريقه، وهم من ورائه.

انطلق برأس فارغ وعينين زائغتين، قادته قدماه الى الظلام والأمان، أى ظلام يخفيه عنهم وجد نفسه فى بحر العتمة الذى يخفى القضبان الحديدية المتقاطعة والأرصفة الواطئة المتهدمة والفلنكات والقطط والكلاب وعربات القطارات القديمة وأجسادا أخرى متفرقة. جلس كيفما اتفق، هز رأسه فى يأس، وراحت أنفاسه تهدأ رويدا رويدا. كان مصمما على العودة الى مكمنه لأخذ الحذاء والفانلة والسترة، هز رأسه مرة ثانية مؤكدا على شيء دار فى رأسه. انطلق متلمسا طريقه فى حذر. لمح بصيص الضوء الصادر من غرفة الحارس الخشبية، ميز موقع عربته، اتجه اليها على أطراف أصابعه. نظر حوله فى توجس، اعتمد براحتيه على حافة العربة الحديدية الباردة..

– الواد ابن الكلب رجع يا فياض.. أمسك.. – انطلق الصوت جهوريا شامتا من عتمة العربة.

برز جسد الحارس من داخل العربة، وانقض عليه من الخلف جسد قصير سمين كاد يقبض على رقبته الرفيعة. أطلق صرخة قصيرة ممزقة، قفزت قطة من مكان قريب صارخة، انحنى بخفة وانطلق من تحت القاطرة الى الجهة الأخرى، راح يعدو لاهثا فى

اتجاه الأضواء القوية الآتية من صالة المسافرين الكبيرة، وصوت الضحكات المسطولة الساخرة يلاحقه.

وقف في المساحة المغبشة بين العتمة المخيمة على الخلاء الواسع وبين أضواء الصالة المزدحمة. تحولت قروح وجهه الى حفر عميقة سوداء، تجسدت على ملامحه مشاعر مختلطة من الحقد والشر والكراهية زلزلت كيانه وجعلته ينتفض في غضب ويأس. مرق من مكانه مجازفا بكل شيء، مطوحا بأوهامه ومخاوفه، ولمعت عيناه بوميض حارق شرير. عدا بعد قليل بصفيحة تنبعث منها رائحة الكيروسين، اتجه مباشرة - بخطوات ثابتة مجازفة - نحو غرفة الحارس، أخذ يرش بهدوء وحذر، على الجدران، والأرض، ثم حط الصفيحة بجوار الباب المغلق، وابتعد قليلا . تنفس بعمق، ألقى بعود الكبريت المشتعل، وطار بجسده النحيل. توارى خلف قاطرة بعيدة، وراح يراقب ما يحدث بعينين تومضان بلمعان غريب. تعالى زعيق وصياح الحارس وصاحبه المخبر، اندفع جسداهما على ضوء ألسنة اللهب المتراقصة في الفراغ والعتمة، بيد أحدهما موقد الفحم، وبيد الآخر الجوزة. اصطدم الجسدان، وقع أحدهما، طار من

يده الموقد وتناثرت الجمرات المشتعلة، تعالت ضحكات الآخر المطوطة التائهة بينما راح الأول يلعنه. ركضا نحو مكان بعيد، وخلف احدى القاطرات - فى حفرة صغيرة - ألقيا الموقد والجوزة، وراح كل منهما يسب الآخر ويتهمه باشعال الحريق. دارا حول الغرفة مرة، وأخرى، ثم انطلقا يركضان نحو الصالة الكبيرة، يصيحان ويستغيثان، يتخبطان ويتعثران، والجسد الصغير القابع خلف القاطرة يتنهد فى ارتياح .

الحصار

اتخذ طريقه، بين القضبان، على الفلنكات ورأسه مشوش بأفكار مختلطة لا نهاية لها. نظر الى الصالة الكبيرة من بعيد، بدت له رؤوس بشرية لا نهائية، والضجيج وفحيح القاطرات يصنعان عالما هلاميا يألفه ولا يعيه. الأضواء الكثيرة الملونة تحيل الوجوه الصغيرة التائهة الى وريقات صفراء ذابلة تتشتت بفعل حركة دائبة يراها ولا يدركها، وأصوات الميكروفونات تعلن عن مواعيد قطارات فى اتجاهات وبلاد مختلفة .

سار مخلفا باب الحديد، وميدان رمسيس. ألقى نظرة باردة على المبنى الضخم، وحدق فى وجه التمثال الكبير بامتعاض، ثم اتجه الى شوارع القاهرة.

لم تكن الشوارع المضاءة جديدة عليه، ولكنها غريبة لا يألف

السير فيها برغم عدم انتباه الناس اليه، أو التفاتهم الى ملابسه الرثة. حاول من جانبه اهمالهم وعدم التطلع اليهم، نسيانهم والغاء وجوههم وملامحهم، التخلص من وجودهم بالكامل، ومن وجود الأولاد والبنات الصغار الذين يسيرون مع أمهاتهم وآبائهم على الأرصفة، أو يتسكعون أمام واجهات المحلات التجارية، أو يركبون السيارات في كبرياء واحساس بالاختلاف يبدو على ملامحهم الطريقة الرقيقة وفى نظراتهم وابتساماتهم.

محاولاته في العثور على لقمة باءت بالفشل. عاوده الاحساس بالغثيان والحرقان فى معدته وأمعائه، ما لبث هذا الاحساس أن تحول الى ألم ممض فى بطنه ومؤخرته. راح يتلهى بالنظر الى الناس والأشياء والفاترينات والسيارات المتزاحمة. سلمه شارع الى آخر، دفعه ممر الى ثان أكثر منه عتمة وقتامة. توقف قليلا أمام بائع الشاورمة بالقرب من سينما ميامى، راح يتأمل قمع اللحم الضخم يدور بهدوء، تنز منه قطرات الدهن، ويتصاعد البخار محملا برائحة دفعت الى رأسه بالدماء والأفكار المجنونة. وقعت عيناه على السكين فى يد الرجل الواقف، تجمدت أفكاره، اندثرت وكأنها لم تكن. اصطدمت نظراته بنظرات شاب يقف مع

فتاة يلتهمان بقايا الساندوتشات، اعتراه خجل غريب، فانصرف.

حلقه الجاف يدفع بمرارة الى معدته، فترتد كثيفة وحارقة الى حلقه وفمه، ومحلات العصير رغم برودة الطقس لا تكاد تفرغ حتى تمتلئ. ارتد بصره إلى طفلتين بجوار والديهما تعبثان بكوبى آيس كريم فى جروبى. ألصق وجهه بالزجاج الخارجى للمحل، أخذ ينقل بصره ببطء بين ألوان الآيس كريم الزاهية المختلفة وبين وجهى الفتاتين. خرج الجرسون الأنيق فى هدوء وأدب وعلى وجهه ابتسامة مهذبة رقيقة، اقترب منه فى حذر، ركله بقوة، وكفا على قفاه ألصقته بزجاج الفاترينة.

- ابعد من هنا يا ابن المعفنة.. - قال الجرسون هامسا فى وعيد وتحذير.

بظّت عيناه الى الخارج، التوى بوزه فى غيظ، وطل من عينيه حقد. فتح فمه، ذابت الكلمات بمجرد أن لمح الشر المتجسد على ملامح الجرسون الأصلع. ابتعد قليلا وراح يكيل الشتائم فى حنق وهو يكاد ينهنه. قرر العودة الى محطة مصر. تذكر ما حدث، رأى الحارس والمخبرين، تجسد أمامه الملجأ، ورش

النجارة والسباكة، دورات المياه العطنة. اختلطت أمامه الصور وتداخلت، راوده البكاء، ولكن البرد شغله حتى عن التفكير فى جوعه. ساقته قدماه ناحية شارع كلوت بك. عاودته الرغبة فى التبرز، انتحى زاوية مظلمة، فك أزرار بنطلونه فى اعياء، قرفص ولم تخرج سوى روائح كريهة. لمح عن بعد كومة أوراق وأقفاص وصناديق، اقترب ببطء وحذر، مد يده، أزاح كومة قش، وقع قفص وتداعت الصناديق، برزت أمامه عشرات العيون اللامعة المتربصة فى شر وحقد، تسمر فى مكانه، راودته فكرة التراجع علا صوت مواء جماعى مكتوم، انهارت الصناديق والأقفاص دفعة واحدة، اندفعت قطط صغيرة وكبيرة بعيون شرسة، طارت فى كل الاتجاهات مخلفة وراءها ضجيجا، وصراخا عاليا مختلطا بصراخه المرعوب. انفتحت نوافذ البيوت القريبة، انهال السباب والشتائم، فراح يعدو بجسده الضئيل وقدميه الصغيرتين فى ذعر.

على رأس شارع كلوت بك، عند التقائه بشارع الفجالة، وقف متلفتا حوله فى خوف وحذر. مر ببصره على بائعى الصحف والمارة وسيارات الأجرة والمنادين. دار بعينيه باحثا عن عربات

الفول الليلية التى طالما بدأت عملها من العاشرة مساء حتى الساعات الأولى من الصباح في خدمة مساطيل آخر الليل، والعائدين من أعمالهم المتأخرة، والمتسعكين والمثقفين والصحفيين وسائقي عربات النفر وعساكر الجيش. كانت هذه العربات مخزن مؤونته الاحتياطي عند انسداد الأبواب أمامه فى القللي أو موقف أحمد حلمي. جال بذهنه البصل والطماطم والسلطة والطرشى، تذكر أن الخبز كان يوضع الى جوار العربات تتناوله الأيدى كلما شاءت، وكان يمد يده الصغيرة من بين الأجساد الواقفة يتناول رغيفا أو بصلة، أحيانا كان يلمحه مسطول أو سائق، فيبتسم ويدفس بوزه فى طبق الفول وكأنما لا شيء هناك. لمح العربة الوحيدة فى صدر ميدان رمسيس، رأى الزحام الشديد حولها، تنفس بارتياح. تسلل بين الأجساد الضخمة، أخذ يفتش عن قفص الخبز، دار مرة، ومرتين. أدرك أن القفص فى بطن العربة من الداخل، والبائع يمد يده فى حرص ليخرج رغيفا برغيف حسب العدد، وحسب الطلب.

نظر الى النافورة الكبيرة تحت قدمى التمثال العالى الضخم. راح يتأمل المياه المندفعة من تحت القدمين الضخمتين في

خطوط متوازية إلى أعلى لا تلبث أن تتقوس لتصب فى الحوض المستطيل الواسع. أفعمه تلألؤها المتناسق، راودته رغبة شديدة فى الشرب، والقاء جسده تحت ضرباتها الخفيفة، وسيطر عليه شعور بالخدر واللذة، استساغ عن بعد طعم المياه وبرودتها، واستملح رعشة جسده. دقق النظر حوله. سار متلصصا تجاه مطعم القللى. دخل فى هدوء، مسح المكان بعينين متوجستين باحثا عن خبز. كان المطعم شبه خالى من زبائنه على غير العادة، وقفص الخبز هناك خلف البائع المتثائب. بنظرة واحدة أدرك أن القفز نحو القفص هو الجنون بعينه. أخذ يتجول بهدوء بين الطاولات الرخامية. بادره الرجل المتثائب هناك، متسائلا فى ارتياب:

– عاوز ايه ياد؟ غور من هنا..

نظر اليه بانصياع، أعطاه ايحاء بأنه سيخرج فى الحال، اقترب من طاولة يجلس عليها رجل قصير بدين وجندى أسمر ضئيل، وثب – فجأة – نحوهما، اختطف رغيفا، تناثرت بعض الأشياء والأكواب، واختفى الجسد الصغير المراوغ، ترك صوت الأطباق الألمونيوم والسباب واللعنات تملأ المكان. انطلق من

القللى، ذاب فى الميدان الواسع المزدحم، إلا أن المخبرين المتسكعين على الأرصفة والمقاهى تنبهوا الى صوت السباب واللعنات، راحوا يحومون فى الميدان، يبحثون عنه، وعن آخرين غيره، بينما كان الفم الصغير الشره يلوك فى نشوة واطمئنان ورضا قضمة كبيرة من رغيفه الذى لا يزال دافئا، وبقعة الظلام خلف سور المحطة تخفيه عن العيون. لم يكد يلتهم نصف الرغيف حتى لمحهم من بعيد، طوى النصف المتبقى فى كفه، أطبق عليه بقوة، نهض منحنيا، حاول استباقهم فى القفز من فوق السور، تنبهوا اليه، صاح أحدهم بصوت عال:

– من الشمال يا فياض... ادخل عليه من اليمين يا عبد الحفيظ ...

هجموا عليه من جميع الجهات، حاصروه تماما. طل من عينيه يأس وفزع. ضحك أحدهم فى انتصار وشماتة. انطلقت صرخة قوية لا تتناسب مع الجسد الهش، استدار، وثب بكل قوته، تعلقت يداه بحافة السور، شد جسده بخفة، طوّح به الى الناحية الأخرى، ونصف الرغيف قد اختلط بالطين والتراب تحت أقدامهم.

– يا ابن العفاريت – قال أحدهم ناظرا الى الآخرين نظرة يفهمونها.

– دا نفس الواد اللـ..... – قال فياض ضاحكا.

– يبقى مطلوب فى الداخلية وفى المواصلات – قال ثالثهم خابطا كفا بكف وجسده يترجرج من ضحكة عالية.

– ضيّع علينا الحجرين.. الله يخرب بيت أمه – قال فياض مبتسما.

راح يتقافز فوق الفلنكات، يتفادى تقاطعات القضبان الحديدية الكثيرة متجها صوب الظلام، نحو القاطرات المتناثرة مثل نتؤات بارزة سوداء أكثر قتامة من الظلام الدامس. دار حول احداها، تفحصها بعينين خبيرتين، انحنى متحسسا الأرض من تحتها، ثم قرفص وزحف. تمدد على ظهره، وصورة نصف الرغيف الطائر في الهواء لا تزال عالقة بذهنه. شعر بالبرد، وبخشونة الزلط ورؤوس الأحجار المدببة وتعرجات الفلنكات، ضم ركبتيه الى بطنه وراح يقضم أظافره... هجمت عليه قطط كلوت بك، نهشت وجهه ويديه، أخرجت أمعاءه، لعقتها ثم راحت تلفها حول أقدامها وتلهو بها... تحول الى فم كبير

راح يلتهم كل القطط، يطير ناحية النوافذ المفتوحة، يأكل الرؤوس المطلة منها... انتقل الى العنابر المظلمة، ودورات المياه، سمع صوت استغاثات الصغار.. انتفض على صوت أقدام متلصصة. نظر فى الظلام ورآهم ستة أقدام ضخمة تتحرك فى حذر. كاد اصطكاك أسنانه يفصح عن مكانه، زحف ساحبا جسده فى هدوء، نظر الى الأقدام المقتربة، انطلق الى الخلاء الواسع راكضا، وما إن تنبهوا الى صوت أقدامه حتى اندفعوا وراءه يزعقون ويسبون بعضهم البعض، ويلعنون أمه واليوم الأسود من أوله.

راح يعدو وهم خلفه. العتمة لا تحميه، الظلام والقضبان المتقاطعة والفلنكات لا تستطيع اخفاءه أو انقاذه من عبث الأيدى الكبيرة القاسية والأجساد الضخمة المصممة على اللحاق به. استدار بنفس سرعته عائدا صوب الصالة الكبيرة، نحو الضوء والناس. دبت فى جسده طاقة يستشعرها لأول مرة، انتبه دفء نادر حينما اقترب من الجموع المتحركة فى الصالة. المسافة بينه وبين المخبرين تقل، صياحهم يلفت الأنظار، يوقظ ويثير رغبة ما دفينة لدى الكتل البشرية فى حيز الضوء وسحب البخار الساكنة

فوق رؤوسهم ، يحفزهم لفعل شيء ما يتوقون اليه ولا يعرفونه.
الجسد الضئيل يندفع في استماتة ورغبة فى الخلاص، فى الذوبان وسط تلك الجموع التى راحت تنظر اليه بعيون محايدة مرتخية، وأنفاس مستكينة باردة، وملامح غريبة متغضنة تحركها رغبة داخلية مضببة. المسافة تتقلص بينه وبينهم جميعا - من الناحيتين. العيون فى الصالة مسلطة على جسده الهش المندفع، تتزاحم فيها تعبيرات متناقضة، يتطوع البعض بسد الطريق عليه، يكثر المتطوعون، تستيقظ بداخلهم قوة غريبة، تثير فيهم رغبات مكبوتة، وتكشف عن أقنعة أخرى جديدة، والعرق يتصبب من الجبين الأسمر، من جسده كله، يتسرب الشعور بالدفء، يتحول إلى يأس وحقد وكراهية، وفكا الكماشة ينطبقان على الجسد الصغير المرتعد من الخوف والبرد، من خيبة الأمل، يود لو يبكي، والفكان ينطبقان فى هدوء وثقة، ينتزعان منه الرغبة فى الخلاص، ويطمران شرارة كانت قد انبعثت. الجسد الرفيع المشدود، المتوتر الى أقصى الدرجات ينحرف الى اليسار، يترك بينهم فراغا بقدر جسده أو أكبر قليلا، يستدير ثانية صوب الظلام، مكمنه الأمين، وملاذه الأخير.

قطار الجنود

كاد يصطدم بجسد ضخم فى العتمة.

– فتّح يا أعمى – زعق صاحب الصوت الرفيع الممطوط فى نفاد صبر .

وقف قليلا فى منتصف العربة حتى اعتادت عيناه الظلام، وبدأت تميز الأضواء الصغيرة البعيدة المتحركة الى الوراء ببطء. لمح أجسادا مسترخية على المقاعد وكأنها مغطاة برداء ذى لون قاتم أفتح قليلا من العتمة، عارية الرؤوس، ميّز فيها العيون اللامعة. عرف من الصوت الذى يعكر صفو دقات القطار المتتابعة أنه لاحتكاكات الأحذية الميرى السوداء الضخمة بأرضية عربة القطار. اطمأن قليلا، راح يتفرس بحذر فى تلك الوجوه الساكنة التى بادلته نظرات باردة محايدة، وشاردة لا تكاد تراه أو تعبأ به. سار حثيثا الى عربة ثانية، رأى نفس

الملامح، ميّز لون الأفرولات العسكرية بلونها الزيتى الداكن، وبين الفينة والأخرى ينطلق صوت متخللا دقات القطار الرتيبة واحتكاكات الأحذية... أمواس حلاقة.. مناديل .. أمشاط .. كوكاكولا.. ساندوتشات. لاحظ عدم وجود مدنيين، وخلو القطار من النساء والأطفال. فقط رأى عساكر الجيش الصغار والكبار، فى عيونهم تساؤلات لا تلبث أن تذوب فى لمحات خاطفة مشوبة بلمعة خفيفة فى الظلام، يغفون واحدا تلو الآخر فى نوم متقطع تتحكم فى اهتزازات القطار وتمايلاته، وأصوات الباعة المتجولين المتثائبة. تسكع بخفة ويقظة – رغم التعب والارهاق الشديدين – مرة، مرتين. تأكد من احساسه بالأمان، واطمأن لوجود العساكر، رغم قلتهم، والمقاعد الكثيرة الخالية. سرح ببصره خارج العربة، عبر نافذة مهشمة تظهر من خلالها النجوم الصغيرة وكأنها قطع معدنية باردة طرزت بحنكة على منديل قاتم اللون فراحت تلمع بشكل يلفت الأنظار. لم ترق له فكرة النوم منفردا على مقعد منعزل، ولم يشغله البرد والرياح المتجولة فى القطار، ولا ضجيج الأبواب والنوافذ المهشمة. مسح جبهته ساهما. عاين من بعيد مقعدين طويلين متواجهين، على أحدهما

يغط جنديان فى نوم عميق وقد لفا جسديهما ببطانية متهرئة، وعلى المقعد الثانى تمدد جندى يشخر بصوت عال سقطت البطانية من فوق جسده على أرضية العربة. اقترب بحذر وأصوات الشخير والأنفاس الرتيبة المتوالية تصنع، مع ظلام العربة ودقات القطار والأشباح المتراجعة الى الخلف، جوا خياليا قريبا من عالم أحلامه المألوف. على مقعد قريب لمح جسدين متكئين على بعضهما البعض وقد دس أحدهما رأسه بين كتف الثانى وظهر المقعد الخشبى، وعلى المقعد المقابل جندى مقرفص بمفرده فى الزاوية بجوار النافذة المكسورة لف جسده فى حرص بالبطانية وراح يغط فى نوم عميق. اقترب منه، قفز الى جواره، قرفص عاقدا ذراعيه حول ركبتيه، وأسند رأسه الى ظهر المقعد. خالجه احساس يشبه الاغماء، أغمض عينيه فى خدر... شب حريق، فجأة، وفجأة اختفى. تدافعت سحنات مشوهة تطارد قطا أسود يجرى أمامهم مغمض العينين، لحقوا به، قبضوا عليه، أشبعوه ركلا، انتفخ القط - فجأة - فتح عينيه، نهض قويا، نظر اليهم بغضب، ماء بشدة، زأر... انتفض فجأة على يد كبيرة دافئة تتحسس ركبته، تنزل بهدوء وثقة على فخذه،

تجمد فى مكانه، تحجرت عيناه، تعثرت شهقة رفيعة فى حلقه... وألقت يد الجندى المجاور طرف البطانية على الجسد الصغير دون أن يفتح عينيه. تسلل دفء من نوع غريب الى جسده، تغلغل الى داخله، دغدغه وربت على أوجاعه الدفينة، وراح فى غيبوبة هادئة مستكينة، وأخذ رأسه الصغير يميل شيئا فشيئا على الذراع القوية المجاورة، وبسمة وادعة على شفتيه.

استيقظت شمس يناير الباردة فى كسل. لكزه الجندى المجاور مرة، ومرتين. فتح عينيه فى ذعر، صدمه الضوء، كاد يثب من مقعده لولا أن رأى الملامح غير العادية تتأمله فى دهشة. تساءل الجندى الطويل النحيف الجالس الى جواره :

- انت طلعت منين ياد؟! - ونظر الى زميليه مستفسرا.

ران صمت متوتر - فى البداية - انقلب الى ابتسامات صغيرة مستغربة، وراح كل منهم يطالع الآخر. أنقذه صوت القصير الأسمر الجالس على المقعد المقابل:

- العلمين فاتت.. - قال بصوت كسلان وكأنما يعلن عن موعد شىء ما غير هام.

- أنا جوعان - رد البدين الجالس الى جواره، ثم تثاءب ونظر فى كسل الى مقابر الحرب العالمية الثانية المنتشرة على جانبى الطريق.

مر بائع الشاى. طلبوا ثلاثة أكواب، أخرج كل منهم كيسا به خبز وبيض وطماطم. راحوا يلوكون فى شهية، وعيونهم تتطلع خارج القطار. ناوله الجندى الطويل بيضة ونصف رغيف. أخذهما فى صمت ولهفة مستترة وراح يأكل على استحياء. قدم اليه القصير الأسمر نصفا آخر محشوا بالطعمية والجرجير والبصل، وقذف اليه البدين بحبة طماطم كبيرة، وقال مازحا :

- أمسك.. فطار ميرى محترم.. - وطلب صائحا أربعة أكواب أخرى من الشاى . ثم أضاف متسائلا فى استخفاف:

- انت رايح فين ؟

- عند أخويا.. - رد بصوت ثابت وقاطع، ولكن الأسمر القصير بادره مندهشا :

- يا ابنى بيسألك رايح فين.. فيـ.. يـ.. ن؟

نظر اليهما الطويل معاتبا. توقفا عن الكلام، وراح كل منهما ينظر فى اتجاه ، فى حين بانت على ملامح الجسد الصغير

شراسة وتحفز، ونهض ناحية دورة المياه. تبادلوا النظرات فى صمت. هزوا رؤوسهم وكأن الأمر لا يعنيهم، وتثاءب البدين فتبعه الآخران.

– عيال عفاريت.. انتبهوا لحاجتكم.. – قال البدين محذرا فى همس .

– شكله مسكين على باب الله – رد الطويل مشوحا بكفه فى بساطة.

– ويمكن حرامى ابن وسخة – قال القصير الأسمرمبتسما فى خبث .

– حياخذ ايه الريح من البلاط – قال الطويل مطالعا الأسمر بنظرة ساخرة، وراحوا جميعا يضحكون.

قطع خروجه من دورة المياه ضحكاتهم.

– انت من مصر؟ – بادره الطويل متسائلا فى عطف.

– أيوه.. – أجاب بضيق وامارات ارهاق شديد بادية على ملامحه المتقلصة .

– منين؟ – سأل القصير الأسمر بحدة واستفزاز.

– من الشرابية.. – أجاب فى غيظ واستخفاف.

- يعني من مصر الجديدة يا أخي ! شكله كده مايعطيش أكتر من بولاق أو الزاوية الحمرا.. - قال البدين ضاحكا وهو يتأمل ملابسه.

ضحكوا جميعا، وشاركهم ببسمة صافية خجولة خالية من أى حقد أو ضيق. علا صياح المحصل فى العربة المجاورة، عم هرج ومرج تخلله سباب وضحكات عالية. تحفز شىء ما بداخله، طالع وجوه الجالسين من حوله، تحولت نظرة الشك فى عينىّ الجندى القصير الى نظرة انتصار وسخرية، وسأله البدين :

- معاك تذكرة ؟

- انت خايف ليه ؟! - أضاف القصير ببسمة صفراء.

نظر اليهما بضيق وحيرة. شعر بالبرودة تتسلل الى مفاصله، وراح ينتظر أى كلمة من الجالس الى جواره. خيّم صمت كثيف، تعثرت أنفاسه قليلا، هب واقفا واندفع الى دورة المياه. بقفزة واحدة كان قد انثنى مرتكزا بمؤخرته على حافة النافذة. شب على أطراف أصابعه فى حرص حتى لامست أنامله حافة البروز الناتئ بالقرب من سطح القطار. وبوثبة نهائية خبيرة ومدربة تمكن من الاستقرار على السطح المحدب. كانت الشمس ما تزال

تطل باستحياء، والريح تشتت رذاذ المطر الخفيف الذى بدأ يتساقط لتوه. استلقى على ظهره محدقا فى السماء، دارت فى رأسه أفكار كثيرة متزاحمة، أغمض عينيه فى رضاء وشعور بالراحة، ثم فتحهما على الصحراء الواسعة، وانشغل بالتحديق فى معسكرات الجيش المتناثرة، وبيوت البدو التى تفصل بينها مسافات كبيرة، ثم أخذ يحصى أعمدة التليفون المبللة التى راحت تفر الى الوراء كالأشباح العارية. بدأت الريح تصفّر فى أذنيه، وحبات الرمال المتطايرة تلسع وجهه، واشتد هطول المطر. تحرك ببطء نحو الطرف القريب من نافذة دورة المياه عائدا الى الداخل مرة أخرى.

رآهم يرقصون. أحدهم يدق على جدار العربة فى ايقاعات منتظمة، وآخر يغنى. أقبل عليه الجندى الطويل فى لهفة وقلق، سأله بعتاب:

- انت اختفيت فين ؟

- فى دورة المياه - تمتم مبتسما، وشعور غريب دافئ كالخدر يتخلل جسده، يخفق له قلبه بشدة، ويبعث بشىء كالغيبوبة فى مؤخرة رأسه.

– ساعتين فى دورة المياه يا كذاب ؟! – قال الجندى باسما، وسحبه من يده صوب اللمة الكبيرة.

طالعه الجندى البدين فى دهشة وهو لا يزال يهز كرشه الضخم على الايقاعات المنتظمة، انحنى هامسا بشىء ما فى أذن القصير الأسمر الذى يرقص أمامه. تبادلا الهمس طويلا، ثم أقبل البدين نحوه، حاول دفعه الى حلقة الرقص، فرفض فى خجل والتجأ الى ذراع الجندى الطويل الذى راح يضحك بشدة. قذف اليه أحد الجنود بنصف برتقالة، وغمز له فى ابتسامة مشيرا اليه بالتقدم فى وسط الحلقة، ولكنه طأطأ رأسه وتغضنت ملامحه. راح صاحبه الطويل يشجعه بابتسامة حتى استجاب . علا التصفيق، دب فى الجسد الصغير دفء، قفز فوق أحد المقاعد وهاتك يا رقص. أخذ يتنقل من مقعد الى آخر، لمح المحصل الأسمر الضخم جالسا فى نهاية العربة يصفق مبتسما، فراح جسده يهتز بانتشاء وفرحة كبيرة تملأ وجهه، وتبعث فيه شعورا جعله يقترب منه، يدور حوله، يصعد ويهبط، يدور حول نفسه، والمحصل يقهقه خابطا كفا بكف، والجسد الصغير يملأ المكان بالحركة، ويبعث الدفء فى أرجاء العربة

المعبأة بالبرد والريح، مطوحا بذراعيه فى كل الاتجاهات ، وبسمة طفولية شفافة تخفى الندوب المتناثرة على وجهه. انطلق صوت الجندى البدين بالغناء، انضم اليه الطويل ثم المحصل، واذا بالصوت الرفيع النشاز يخرج قويا دافئا فى نشوة، وما لبث أن عم العربة صوت غناء جماعى صاخب تتخلله ضحكات قصيرة فرحة حتى هدهم التعب والجوع. وراحت الأصوات تخفت شيئا فشيئا، والواحد يتسلل خلف الآخر بهدوء.

انتحت كل مجموعة ركنا فيما ظل هو مع أصحابه. تناول معهم طعام الغداء، والشمس تأخذ طريقها متلكئة خلف الغيوم الثقيلة السوداء، تسير ببطء وكسل الى الناحية الأخرى وكأن الأمر لا يعنيها، وبين الحين والآخر تطوح الرياح برذاذ المطر الخفيف.

ارتفع صوت جهورى عريض :

– مطروووو.....ح..

راحت الرؤوس تطل من النوافذ. علا الصخب، وتوالت القرقعات، وصوت سقوط حقائب وصناديق، واحتكاكات الأحذية الميرى الضخمة بالأرض. تعالى فحيح القطار، وأخذ يهدئ من

سرعته. التقط الجندى الطويل حقيبته الصغيرة، تلفت حوله، مسح العربة بعينيه، سأل فى قلق واضح :

- فين الواد ؟!

- فين الواد ؟! - أجابه البدين متسائلا ، وشفته السفلى متدلية إلى أسفل .

نظر الجندى القصير فى خبث، راح يفتش فى جيوبه بحركة تمثيلية، ثم قال للطويل ساخرا:

- المحفظة معاك ؟!

نظر اليه الجندى الطويل بضيق مؤنبا، وهطل مطر غزير أسود.

الدوامة

قفز من النافذة قبل دخول القطار الى المحطة. سلك طرقا عديدة ملتوية ومتشابكة حتى وجد نفسه بالقرب من محطة القطار. سار فى حذر بين الناس، شاهد تجمعات كثيرة، وكتلا بشرية تسير فى كل الاتجاهات، وبيوتا كثيرة حديثة، وعمارات عالية، ومنازل من طابق واحد متناثرة هنا وهناك. بالقرب من المحطة لمح مقهى تفصله قضبان السكة الحديد عن مستشفى كبير. استهواه مرأى فتيات ونساء البدو بملابسهن الزاهية يخفين وجوههن خلف النقاب، أو يوارينه بجزء من غطاء الرأس. قادته قدماه الى شارع الاسكندرية، تذكر على الفور شوارع القاهرة الفخمة بمبانيها العالية الضخمة ومحلات السوبر ماركت الجديدة، والضجيج والسيارات. ظل يتجول دون هدف

فى أنحاء المدينة الصغيرة، والشمس تتهاوى من الناحية الأخرى خلف الجبال البعيدة. توقف ساهما أمام موقف السيارات الكبير، خطرت على ذهنه فكرة مفاجئة... لماذا لا أطلب عملا من الرجل الجالس هناك فى الكشك الخشبى! هم بالاقتراب، نهره رجلان بشدة، ونظر اليه أحد المنادين الصغار ضاحكا فى سخرية وشماتة، فانصرف مبتعدا فى غيظ ، وتمتم :

- حتى هنا..

عاد ناحية المستشفى بخطى وئيدة عبر الشارع الكبير، تخطى القضبان الحديدية شاردا واقترب من المقهى. جلس على حجر كبير بجوار سور واطئ متهدم يتابع بهدوء حركة القهوجى الأسمر الضخم بابتسامته التى تكشف عن أسنان صفراء متآكلة. ولما فشل فى جذب اهتمامه أسند ظهره الى الجدار. سرح ببصره نحو جبل عال بعيد والفكرة لا تزال تطن فى رأسه. لاحت فكرة أخرى عابرة، ارتجف قليلا، ثم هز رأسه وهمّ بالنهوض، وما كاد يقف حتى سد عليه الطريق رجل ضخم قصير بجلباب أبيض وعمامة ناصعة، ينتعل حذاء أسود لامعا بنصف رقبة.

- ليش جاعد هنا؟! - بادره الرجل بلهجة مختلفة لا تخلو من الشك والتحفز.

فزّ من مكانه، التصق بالجدار، أدرك هويته من كفه الغليظة المزينة بالخواتم الفضية، انخلع قلبه عندما اصطدمت عيناه بعيني الرجل الحمراوين المليئتين بالشر. توقفت الكلمات في حلقه. وقبل أن يخطو الجسد القصير الضخم نحوه، كان قد انطلق من مكانه، واندفع نحـو المحطة، والرجل ينظر بقـرف واشمئزاز الى ظهره الرفيع الطويل وقدميه النحيلتين المتواثبتين على الفلنكات.

راح يتسكع وعيناه على الطريق والأرصفة والزوايا في يقظة وحذر. كانت الشمس تلملم آخر أذيالها المرخية في استسلام، والقمر يطل بدرا الا قليل. هبت رياح مفاجئة تحمل رائحة البحر، أنعشته، وبثت في جسده أحاسيس بالارتياح، ورعشة خفيفة جعلته يغمض عينيه ويتنفس بعمق. سار صوب مصدر الرائحة ورذاذ المطر الرفيع يبلل وجهه. لمح الصيادين، عن بعد، يربطون مراكبهم ويحملون مقاطفهم وشباكهم وأدواتهم الأخرى: منهم من يتجه الى البحر، ومنهم من يتجه نحو بيته القريب من

الشاطئ. اعتمد بكفيه على السور القصير السميك الفاصل بين الشارع الواسع نسبيا وبين البحر الذى يكاد يبتلع الشريط الرملى الضيق بمحاذاة السور. راح يراقب الصبيان المنهمكين فى ألعابهم، يقذفون بالأحجار صوب البحر، يصيحون، يتقافزون، ويتبارون، ويتقلبون على رمال الشاطئ. جلس فوق السور يطالعهم بعينين ساهمتين، ويراقب الطيور البعيدة السابحة فوق المياه، تداعب الأمواج تارة، وتارة أخرى تدفس أبوازها فى الماء مرفرفة بأجنحتها، ثم تطير زاعقة مدومة حول القوارب المربوطة إلى الشاطىء. لمحه الأولاد من بعيد، دب فيهم حماس مفتعل ما لبث أن تحول الى طاقة حقيقية، فتسارعت حركاتهم وقفزاتهم، علا صياحهم وضحكهم، وراحوا يتبارون مرة أخرى فى قذف الحجارة داخل البحر.

صاح أحدهم من بعيد موجها اليه الحديث :

– تعال العب معنا..

لم يرد. حرك رأسه بحياد، ودبت فى عينيه حركة خفيفة. راح يقترب منهم ببطء وبرغبة غير ملحة فى مشاركتهم اللعب.

- انت ساكن هنا؟

- بادره نفس الصبى متسائلا فى ود، وكان أطول منه قليلا.

- لا - أجاب في برود دون أن يلتفت اليه.

صاح رجل يحمل شبكة على كتفه مناديا على ابنه لمساعدته فى حمل المقطف، نادت امرأة أمام أحد الأكواخ البعيدة على الشاطئ صارخة على ولديها اللذين راحا يتصارعان ويتناطحان في الماء. ظل عدد قليل مستمر فى الجرى والقفز بينما انفصل ثلاثة اتجهوا صوب الماء، خلعوا ملابسهم، تعروا تماما، وانسلوا كالثعابين غير مبالين بالبرد أو بهياج البحر.

- انت من وين ؟ سأله الصبى بابتسامة خفيفة.

- من مصر - رد محدقا فى عينيه بدهشة.

جحظت عينا الصبى. راح يتأمله، يبحلق فى وجهه، ويهز رأسه.

- يا عمر - صاح الصبى داعيا أخاه باشارة متعجلة من يده.

- اسمى مجاهد - وأضاف - وهذا أخى عمر - ثم اتجه نحو عمر الذى يقاربه فى الطول والملامح قائلا فى دهشة -

تصور... من مصر.

– وايش اسمك – سأله عمر وقد انتقلت عدوى الدهشة الى ملامحه السمراء النظيفة.

– بـ .. بشير – قالها مترددا ثم توقف فجأة. سرح ببصره بعيدا، أخذ نفسا عميقا هادئا، تداعت أشياء غير مفهومة بداخله، وردد مرة أخرى فى تأن وحميمية:

– بشيـ.. يـ.. ير..

– يا ولد .. على البيت انت وهو – جاءهم صوت الأب قاسيا، خشنا وغليظا صدّع اللحظة، وقطع تداعيات الاسم المتردد كموجات فى مستنقع آسن بدأت تتحرك ببطء ولزوجة على أثر سقوط حجر صغير فيه .

شعر بشير بغصة ومرارة شديدتين، بشىء ما ينقذف خارج صدره ويترك خواء مرا باردا يكاد يفقده وعيه، وصوت الأمواج يبث فى روحه يأسا وكرها لكل ما حوله. تراكمت غيوم سوداء حجبت وجه القمر، وبدا البحر أسود مخيفا. غرس قدمه فى الرمل وراح يلفها ضاغطا عليها نحو الأسفل، نظر الى الأفق الملبد ثم أعطى ظهره للشاطىء. اتجه ناحية المدينة سالكا طرقا

متعرجة، وحوارى قصيرة ضيقة تخفيها العتمة وشعور بالاغماء يراوده بين الفينة والأخرى. اقترب من المحطة : ثمة مارة قليلون، وبرودة وهواء له رائحة الزفارة والعطن. دار حول المبنى المتهالك والمطر قد بدأ يهطل. عثر على فتحة غير واسعة فى سور المحطة، تسلل متجها صوب القاطرات والعربات القديمة البعيدة عن المارة والمسافرين. لمح كوخا خشبيا صغيرا، اقترب فى حذر واعياء، وجده بدون جدار خلفى، يكاد يكون بدون سقف. ألقى بجسده فى احدى الزوايا، تكور على نفسه، ازداد احساسه بالرغبة فى التقيؤ. أجرى عدة مجاولات، دون جدوى، انتهت بتقلصات مؤلمة فى معدته وأمعائه وخفقان شديد فى قلبه. زحف صوب الركن المقابل المغطى بلوح من الصفيح لكى يحتمى من زخات المطر القوية، ومن البرودة والرياح المحملة بحبات الرمال الغليظة. دار رأسه بشدة، شعر بجسده كله يدور، يسقط فى دوامة سريعة قاسية، أغلق عينيه الملتهبتين، تدافعت صور كثيرة مشوشة راحت تظهر وتختفى، والدوامة تجذبه الى أسفل نحو وجه امرأة بدون ملامح فى جلباب أسود برأس معصوب بطرحة سوداء قديمة يلتف جزء منها حول رقبتها وينزل طرفها على

صدرها. كان هو صغيرا وعاريا، تقف عن يمينه فتاة أطول منه قليلا، تبكى بدون صوت، ولا يظهر من وجهها سوى عينين تائهتين. الدوامة تخبط رأسه، تهبط به الى هوة سحيقة، تظهر ملامح المرأة أكثر وضوحا رغم الظلام: فمها، عيناها، أنفها، جبهتها، شبابها والوشم الأزرق على الجبين. الفتاة تبكى، فى صمت، بدموع لامعة دافئة، تسقط خصلة من شعرها، تعيدها بكفها الصغيرة وتبكى. الدوامة تسحبه نحو قاع مظلم سحيق ليس له قرار، تدفعه نحو جدار صلب يدور، تشتت الصور والوجوه، تطيح بالفتاة ، تبعثر ملامح المرأة، تنثرها هناك فى الهوة المعتمة، تختلط الأشياء والأشلاء، وتبقى الظلمة الحالكة وعيون سوداء محملقة، وآثار لوشم أزرق على جبين ملقى فى زاوية الهوة.

١ - أحاسيس دافئة .
٢ - روائح .
٣ - دهشة .
٤ - متتابعات لوغاريتمية.
٥ - بانجو .

مساء العنب

أحاسيس دافئة

– لم يبق سوى أحلام النوم.. – قال في نفسه، وطوح بعقب السيجارة. كادت الفتاة، التى تمر بالقرب منه تشتمه، لولا أن رأت سحنته المتجهمة خالية من أية تعبيرات تنم عن المعاكسة، فأدارت وجهها سريعا كما لو كان عقب السيجارة قد اصطدم بقدم إنسان آخر لا تعرفه.

خلع أحمد نظارته السوداء وأطبق عليها بكفه العرقة فى نعومة وحرص. مسح على جبهته العريضة بظهر يده، ثم مرر كفه برفق على صلعته الواسعة، التى احمرت لتوها ونفرت عروقها من حرارة الشمس، ململما ذرات الغبار العالقة بقطرات العرق الصغيرة المتناثرة عليها.

اندفع وسط الزحام وترك جسده الطويل الضخم يسير بقوة الدفع. أغمض عينيه وكتم أنفاسه، وكانت قدماه تعرفان جيدا

ارتفاعات درج السلم. وجد نفسه داخل الأتوبيس. أخذ نفسا عميقا، زنق ظهره في القضيب المعدني الأفقي في المؤخرة، وأمسك بقائم رأسي قريب منه، وأنفاسه تكاد تتوقف من الزحام والحرارة الخانقة، ودخان عوادم السيارات الذى يتسلل الى داخل الأتوبيس من جميع الجهات والنوافذ والأبواب. دفعه الرجل الجالس على المقعد المجاور عندما مال عليه بحدة من جراء الانحراف المفاجئ للأتوبيس، ومن ذلك الاحساس المباغت باغماءة عابرة. نظر الى الجالس بغيظ وصمت. داست على قدميه امرأة تحمل قفة، تبدو ثقيلة رغم صغر حجمها، وبيدها طفلة على عينها رباط شاش قذر ملوث بالدماء تكاد تبكى من شدة الزحام والحرارة.

ارتج الأتوبيس بشدة . اندفع الى الأمام ثم توقف، اندفع ثانية وارتطم بشيء ما. ارتطم رأس الرجل الجالس على مسند مقعده ثم ارتد في نفس اللحظة ليصطدم بمؤخرة رأس الجالس أمامه. تعالت الشتائم واللعنات ، وتدافعت الأجساد في كتل مترهلة. سب الرجل الجالس السائق والمحصل ووزير المواصلات وكاد يستمر لولا أن تحرك الأتوبيس مكركرا، وراحت الشتائم

المنهالة من كل صوب وجهة خفت شيئا فشيئا مع استمرار حركة الأتوبيس البطيئة. ابتسم أحمد ناظرا الى الرجل فى شماتة وسخرية، بينما راح الثانى يمسح وجهه ويتمخط . لم يكد الأتوبيس يسير محطة أو اثنتين حتى انتفض الرجل صارخا. راح يسب ويلعن والرذاذ يتناثر من فمه على وجوه المحيطين، واتجه نحو الباب فاردا كوعيه في وجوه الواقفين، واخترق بعنف كتلة الأجساد التى راحت تترجرج فى هدوء واستكانة وتنظر اليه بعيون مليئة بالدهشة والاشمئزاز. انتهز أحمد الفرصة معطيا كتفه للمرأة الملتصقة به حتى بدا وكأنه يفسح الطريق للرجل، ثم ألقى بجسده على المقعد. لم يكد ينظر أمامه، نحو المقعد المقابل، حتى انفرج فمه وتدلت شفتاه دون إرادة منه. اختلط عليه الأمر فى البداية، أسرع بوضع نظارته على عينيه.. ياا..ه ! كل هذا الجمال! خلع نظارته، مسح على صلعته فى شبه غيبوبة، بحلق بشكل لفت انتباه الفتاة الجالسة. انتابه شعور مسيطر بأنه وحده فى الأتوبيس وهى أمامه، الى جواره، يدها فى يديه، كتفها تلامس كتفه. شعر بأنه ارتد الى الوراء عشرين عاما وهى بجانبه تحتضن ذراعه، والدم الدافئ يسرى بلذة غريبة فى

عروقه، يندفع الى قلبه الخافق بتؤدة وحميمية. راح يتأمل ملامحها الدقيقة الناتئة، ويستلذ بذلك الإحساس الدافئ المراوغ الذى تملّك من جسده. حدقت الفتاة بدهشة فى عينيه ثم أدارت وجهها نحو النافذة. توتر قليلا على أثر نظرتها الهادئة المستغربة، وما لبث أن استعاد هدوءه وتماسك... ياربى..! لكن لماذا كل هذا العبوس؟! وكانت هى تبتسم فى نفسها وترقبه من طرف عينها. مال عليها شاب يقف بمحاذاة مقعدها، همس فى أذنها مبتسما، انفرجت شفتاها عن مشروع ابتسامة وديعة خجلة، ثم راحت ملامحها جميعا تبتسم فى هدوء، ويتصاعد من وجهها نور خفى المصدر فى دوائر ملونة تملأ الفراغ الفاصل بهواء نقي رطب ونغمات لها ألوان زاهية متناسقة.

روائـــح

فوجئ بكف صغيرة معطرة وخفيفة تهبط على كتفه بهدوء ومودة.

– معقول !! أحمد عبد الرحمن! ياا...ه ! – قالت الواقفة بمحاذاته – تقريبا – بصوت مدهوش ومألوف معا وهي تنظر الى وجهه بابتسامة طفولية عذبة.

أسعفته ذاكرته على الفور، فكشف وجهه عن ابتسامة أكثر دهشة واستغرابا وفرحة.

– مش ممكن!! أمينة هريدى! يا اللـ ااا...ه ! – قال ذلك ببهجة حقيقية ناظرا فى عينيها مباشرة.

أحاطت زنده العجوز الضخم بذراعها اليسرى الصغيرة فى دلال، وأشارت بسبابتها الرفيعة اللامعة ذى الخاتم الرقيق

بفصوصه الدقيقة الملونة، والمانيكير الوردى على أظفرها.

- شفت كتابى الأخير ؟ ! - قالت مندهشة وكأنها لا تصدق أنه كتابها.

- يا معلم مدبولى.. هات لى نسختين من فضلك - طلبت فى حسم ورقة من الرجل الواقف بعيدا فى جلبابه الرصاصى الفضفاض.

سارع الولد السمين الذى يتسكع كالخفير أمام الكتب المفروشة على الرصيف بتناول نسختين من الصف الطويل على الأرض، ولكن المعلم انتهره بلوم وقسوة، وأمره باحضار نسختين للست هانم من الداخل. ابتسم أحمد عبد الرحمن عندما تفوّه المعلم مدبولى بكلماته الأخيرة. وقال فى نفسه : أمينه العرجا بنت العفنة صارت هانم ! زمن ! وبحركة مسرحية أحاط خصرها الدقيق بذراعه الطويلة المشعرة بشكل أثار دهشتها وسرورها فى آن واحد، ثم كوّر قبضته فاردا سبابته ودفعها فى صدره مخاطبا المعلم الذى أقبل مبتسما فى دهشة :

- أعرفك بنفسى... أحمد بيه ..

سألها عن أخبارها. ردت بابتسامة يعرف مغزاها منذ أيام

الجامعة، بأنها طلّقت التمثيل والاعلانات بالثلاثة، وها هو كتابها الخامس فى السوق. ثم أضافت بتواضع: وهناك ثلاثة سيناريوهات ومسرحيتان. كان يسمع والعرق يتصبب فى قطرات صغيرة من رأسه الضخم وينزل فى خيوط رفيعة على رقبته وقفاه، وعروق صلعته النافرة تكاد تنفجر من شدة الحرارة.

سألته عن حياته، وعما يفعل، وأين يشتغل. أخبرها ضاحكا بأنه مثل الظواهر الطبيعية، محلك سر، ولا جديد تحت الشمس، زادت فقط زوجة وبنتان، وولد رسب فى الثانوية العامة لمدة سنتين متتاليتين، اضافة الى بعض الهموم الصغيرة الأخرى، ثم ابتسم فى بلاهة تعرفها أمينة جيدا.

- وآخر كتاباتك ؟ - سألته وهى تفتح باب سيارتها، ثم أضافت ضاحكة :

- دا اذا كنت مازلت بتكتب ؟! - وجاهدت لتكتم ضحكة عالية.

قال بابتسامته الهادئة التى تعرفها وهو يكاد يختنق من رائحة ما تعبق صالون السيارة :

– عن ابراهيم فهمى وعمر نجم – وأضاف بخبث :

– والواد خالد عبد المنعم – ونظر بتمعن الى وجهها فى المرآة الأمامية.

مدت شفتها السفلى الى الأمام، وأدارت المفتاح فى عصبية خفيفة.

– بيشتغلوا ايه صحابك دول ؟! – تساءلت بينما ارتفع صوت محرك السيارة بشكل أثار انتباه المارة وجعلهم ينظرون فى استغراب.

– ماتوا – قال فى ابتسامة خفيفة، وعاودته على الفور رائحة غريبة تذكره بروائح الجثث.

قالت فجأة :

– شفت اللى حصل ؟! العيال السفلة ضربوا نجيب محفوظ بالسكينة ! – ومصمصت شفتيها.

– يعنى هو من بقيت أهلك ! – قال باستفزاز واضح مسلطا عينيه علي وجهها الذى لا يزال ينضح باشراقة الشباب.

– سافل كما عهدناك يا فتى – قالت بابتسامة مقلدة صوت أحد الممثلين المشهورين، ثم أضافت فى جدية :

- أنا أعرف انك كنت مشغول بكتاباته.

لم يرد، وأخذ يعبث فى جيبه باحثا عن شىء، وبسرعة أخرج زجاجة صغيرة فتحها، وتناول قرصا أصفر صغيرا قذف به الى فمه.

دهشـــة

اندفع جسده الى اليمين بتلقـائية وعنف. اصطدم رأسه بالقائم المعدنى الرأسى، واختلطت الصـور أمـام عـينيـه... أمـينة هريدى تمثل فى مسرح الجامعة، تقيم علاقة مع مخرج المسرحية الوافد من الثقافة الجماهيرية، يتركها، أو تتركه بعد الانتهاء من العرض الأخير، بعد التخرج تتعرف على كاتب ومخرج مسرحى يعمل ناقدا وصحفيا وشاعرا، وأشياء أخرى. تأخذ أدوارا أطول فى عروض بالمسارح الصغيرة، يقول المخرجون - فى البداية أنها موهوبة ورائعة وعبقرية، ويقول زملاؤها : المسائل مفهومة، فهى لا عبقرية ولا يحزنون. أما محررو الصحف من هواة التسكع بين الممثلات الناشئات فكانوا يختلفون تبعا لقرب أو بعد المحرر منها، ولكنهم فى النهاية يجمعون على أنها لا رائعة ولا عبقرية ولا شىء، كل ما فى الأمر أنها ...

تعالى صراخ طفل بالمقدمة، انطلق سباب من المؤخرة . مد يده فى محاولة يائسة للامساك بأى شىء تحسبا للانعطافات غير المتوقعة... كانت تعرف أنها جميلة، وكان الرجال يرددون ذلك من أول لقاء. أما النساء فيشرن بحيادية تامة إلى أن نهديها صغيران، وفى أحيان أخرى يبتسمن - فى حضورها - ويربتن على مؤخرتها المشدودة هامسات فى ود ومحبة: لو تعرفى تخففى الشحم شوية تبقى ولا نجوى فؤاد. وأمينة تنتقل هنا وهناك، تعرف الحوارى والأزقة والدروب، وتطرق الدهاليز المعتمة فى ثقة، وتحافظ دائما على المسافة بينها وبين مصادر الضوء كفراشة حكيمة. وفجأة تظهر مع سعدون الرفاعى الصحفى الفنى والأدبى والسياسى. ما أجملهما معا، وما أعظم أن يتأبط المتعوس ذراع خائب الرجاء. يظهر الخبر الأول عن دور لها فى مسرحية من تأليف أحد أصدقائها القدامى سيخرجها مخرج من معارفها الجدد، ثم يكتب عنها سعدون الرفاعى بنفسه مقالة بعد العرض الأول، وتنتهى علاقتهما بإشاعات من الطرفين..

سألته عجوز عن اسم المحطة القادمة، فذكر لها اسم المحطة التى لم يتوقف فيها الأتوبيس. نظرت اليه بذهول وبلاهة، فبادلها

نظرة تائهة باردة... وأمينة هريدى تطير على بساط من حرير بينما سعدون الرفاعي يصير صاحب عمود يومي. جريئة هذه الملعونة، وواضحة مثل الشمس ومثل سعدون الـ... خرج صوت واهن من بين القامات المتمايلة يمينا ويسارا: محطتي.. وقّف .. وقّف يا راجل.. يا أسطى.. وتطايرت الأجساد مصطدمة ببعضها البعض. امتدت الأيدى ممسكة فى طريقها بمعاطف وياقات وحقائب نسائية، مصطدمة بصدور الفتيات. توقف الأتوبيس. تدافعت الأجساد من الداخل والخارج نحو الأبواب المغلقة. تساءل رجل فى بلادة ودهشة: لماذا لا يفتح الأبواب ؟ نظر اليه أحد الجالسين بقرف واستياء ثم دفن رأسه فى الصحيفة، مرة أخرى تعالى ضجيج الواقفين على المحطة. أعلن السائق بصوت بارد أن الأبواب قد تعطلت، وغطت قهقهات المحصل على الشتائم واللعنات المتفرقة... وأمينة تطير وتسبح، تسرى إلى الذُرا. لم تكن أسوأ من سعدون الرفاعى الذى صار مؤخرا رئيسا للقسم الفنى، كل ما فى الأمر أن الأدعياء موجودون بين الجنسين، وعليك فقط أن تعرف متى وأين وأمام من يجب أن تتعرى أكثر وتكشف عن عوراتك العليا قبل السفلى

لتصير كاتبا مثل سعدون الرفاعي وأمينة هريدى، ولتكتشف فى النهـاية أن كل الطرق تؤدى إلى رومـا ، وإلى بولاق الدكـرور والوايلى الكبير وجهنم الحمراء...

اندفع الأتوبيس بشكل فـجـائى إلى الأمـام، انعطف يمـينا ويسـارا. غطت الصـرخـات المسـتـغـيثـة والتـأوهات اليائسة على صوت طرقعات العظام. أشعل أحد الجالسين الى جوار النافذة سيجارة. قال رجل موجها كلامه الى سقف الأتوبيس: ممنوع التـدخـين، وتعـالت صـيـحـات الاحـتـجـاج. نفخ الرجل دخـان سيـجارته بضيق وغطرسة: اللى مش عاجبه ياخد تاكسى أو يشترى عربية. رد عليه آخر بغيظ : افتح الشباك. صرخ المدخن بنفاد صبر : المقبض مكسور يا أعمى، والمطر شديدفى الخارج و.. تلقى لكمة قوية من أحد الواقفين. ضحكت امرأة فى تشف، ولكزت فـتاة شـابا التصق بهـا فى عناد وتصـميم. انتـزع قارئ الصحيفة وجهه من صفحة الوفيات، أدار بصره بتأفف وعصبية فى الوجـوه من حـوله، وتمتم: حـيـوانات، والله أقـذر من الحيوانات... وأمينة طيف يتحرك برداء شفاف وردى بلون دهان أظافرها وشفتيها، يبدو ناعسا على جسدها الريان رغم سنواته

التى تقارب على نصف القرن. ويطل حلم قديم، يراود القلب ويراوغه، ينفلت من عقاله مثل غول مجنون يحتضر، لكن الدقات العنيفة المستغيثة والأقراص الصفراء فى الزجاجة الصغيرة ترفع اشارة الخطر وتنقض على الغول الخائر، تقضى عليه، ولا يبقى سوى اجترار حلم الشباب، ولعبة القط والفأر مستمرة. تمد يدها اللامعة بكأس نبيذ طويلة بلون المخمل، تشير بكفها الصغيرة البضة فى بساطة الى عنوان كتابها الرابع ذى الأجزاء الثلاثة. تسألك عن كتاباتك. فتضحك بفعل الخمر وأشياء أخرى مخجلة، وتكتم ضحكة ملتاعة ربما بفعل الغيرة والحسد. تجيبها بأنك لم تطبع كتابا حتى الآن. فتضحك منتشية، بدون شماتة أو تشف، ولكن بفرحة النصر، ببهجة الفعل التى لا يعرفها سوى الذى فعل. تتمايل فى مقعدها القريب بشهقات حلوة هفهافة، تقول : مجنون زى نجيب شهاب الدين . فيرسمه الخمر حزينا مغموما، بدمعة دائمة فى زاوية العين وانحراف دلالى فى الشفة السفلى. تجسده النشوة مكبوتا ومغتاظا يشتم أصدقاءه فيحبونه أكثر، يلعن الكتب والشعر وينضح غلى ذؤابات ابتسامته النادرة. وينفلت سؤال سكران: من نجيب شهاب الدين هذا؟! فترد بقرف: ابن كلب قليل الأدب. فيضحك طيفه المخاتل

ضـحكتـه النادرة، يخـرج مـتـئـدا نحـو الطريق الى بولاق أو البتانون. ويقول السكران للسكران: حمار ! فيطل الطيف بنفس ضـحكتـه النادرة طفـلا صـغـيرا يشاكس سمـير عبد اللطيف بالفرنسية الفصحى ويقول ...

اهتـز الأتوبيس بشـدة. تعـالى صـوت صـخب وقـرقـعـات وحشـرجـات، ارتطمت الرؤوس بالأنوف، والقـبضـات بالعـيـون. تكومت أجساد الصغار والعجائز تحت الأقدام. فاحت رائحة الطين والوحل مختلطة برائحة العرق ودخان السجائر والبرودة المتسللة... وأمينة تتحرك بقوة دفع السكر، والثمالة الشفافة مثل ردائها، تلمع عيناها بوميض حاد وحارق، لا تعرف هل يناديك أم يصدك، يعزيك أم يسخر من خيبتك، ورائحة جسدها المضمخ بعبق شبقها الفواح تطغى على أريج عطر ما يصنع سحابة شفافة فوق الأحاسيس تزداد كثافة بقدر ما تتجرعه من خمر وذكريات وربما حسد و ... نشبت فى المؤخرة مشادة كلامية، انقلبت الى عراك بالأيدى وتناطح وركل،. صرخت فتاة واضعة يدها على مؤخرتها بينما تشبثت يدها الثانية بحقيبتها، والسائق يتطلع اليهم والى الطريق فى دهشة.

متتابعات لوغاريتمية

٢=١

- بعد ثمانية أشهر بالتمام والكمال جاءتني رسالة عظيمة - قال ضاحكا حتى أغرورقت عيناه بدموع مزدحمة لامعة، وأضاف :

- وضعت امرأتي ابننا الثالث، وأسمته سالما.

كنت أعرف أنه حصل على درجة الماجستير قبل الحرب الخاطفة التي خرجنا منها جميعا محسورين. أثناءها أنجبت زوجته ابنتهما الثانية، فأسمتها سلمى على اسم أمه من أجل أن تكسبها وتتقي شر أخواته المتربصات بها منذ دخولها بيتهم، وعلى أمل أن يعود هو سالما من الحرب. فلما عاد ضاقت الدنيا في وجهه، في البيت والشارع، وفي غرفة نومه. وفجأة قرر ترك الجمل بما حمل، والقاء مريم وسلمى وزوجته في نار أمه

وأخواته، والسفر إلى الخارج للحصول على الدكتوراة والبحث عن باب رزق فى بلاد الله الواسعة. وما أن عاد بشهادته، وببعض الهدايا حتى وجد الدنيا أضيق مما كانت عليه.

وعرفتُ بعد عودته أنه يفكر فى الطلاق، وترك منزل الوالدين.

– لكن مريم وسلمى وسالم ! – قال فى حيرة والدموع فى عينيه ما تزال مزدحمة ولامعة.

همست فى أذنه بأن ثمة مكاناً شاغراً باحدى الصحف المحلية. جفت على الفور دموعه وحلت محلها نظرة أعرفها منذ كنا معا فى تلك الحرب اللعينة. قبّلنى بشكل عابر، ورغم خجله الشديد أحسست بحرارة قبلته. وانطلق الى الصحيفة.

عيّنوه مراجعا بمائة جنيه فى الشهر. قبل على الفور، وقال فى نفسه : ملعون أبو الدكتوراة. وراح يكتب ، إلى جوار عمله بالصحيفة، فى المجلات الفنية الرخيصة، ويتابع أحوال أهل الفن والأدب، ويتنقل من مقهى إلى مقهى.

على جدار أحد المقاهى التى نجتمع عليها مساء كل يوم، استوقفه اعلان أنيق لاحدى شركات البناء الجديدة يطلبون فيه بغالا بأجر لا يقل عن مائتى جنيه شهريا، وفى حالة قبول

صاحب البغل العمل عليه فسوف يتضاعف الأجر. وفى نهاية الاعلان كُتب بخط دقيق.. الأجر يتوقف على صحة البغل !

يومها - كما حكى خضر القهوجي - طلب صاحبنا، بعد قراءته للاعلان، شايا ثقيلا وشيشة ثم جلس مبتسما فى بلاهة. وعندما أحضرهما خضر القهوجى رآه متجمدا يحدق فى نقطة ثابتة فى الفراغ ، ودمعة كبيرة متحجرة فى عينيه.

المحصلة=صفر

كان يوم الغد عيد زواجهما الخامس عشر. سارعت، عند حلول المساء، بارتداء قميص نومها الأحمر المدندش وظلت جالسة تنتظره أمام المرآة. قبل منتصف الليل بقليل دخل بعينين حمراوين وملامح خاملة متهدلة. نظر نحوها بدهشة وراح يخلع ملابسه في هدوء غريب. طالعته بدلال بعد أن أدركت من احمرار عينيه أن الأمور ستسير على ما يرام. سألته بصوت رائق حنون : أجهز لك العشا ؟ هئ.. هئ . فازدادت دهشته ولم يرد .

قبل أن تضع فخذها البض الممتلئ على طرف الفراش، أزاحت بكفها المعطرة منديل رأسها الأحمر الى الخلف فى أنوثة

واستحياء، فانسدل شعرها الطويل مغطيا كتفيها وظهرها، واحمر خداها على الفور. اضطجعت الى جواره متنهدة فى دلال، ونور هادئ ينسكب من جبينها ووجنتيها، يسيل على صدرها الواسع الشهى. لكزته برفق فى كتفه، وابتسمت بينما كان ممددا بجسده الطويل النحيف مسترخيا تماما، عيناه مغمضتان، وتنفسه هادئ متتابع. مدت كفها الى صدره، مررتها برقة وحنان على تلك المساحة القليلة من الشعر الأسود الكثيف، ففتح عينيه وتنحنح، فى حين أغمضت عينيها وتنهدت بعمق واشتهاء، ثم افتر ثغرها الصغير ذو الشفتين الرفيعتين البارزتين عن ابتسامة شهوانية متوقدة. أستلقت الى جواره، وقالت فى نفسها : آه لو يشترى لى الخاتم الألماظ اللى شفته انهارده..! بينما كان المسترخى مغمض العينين يفكر... لو كنت خنقتها من أول يوم وحكموا علىّ بخمستاشر سنة، كان زمانى فى بيتنا بكره ..!

بانجـــــو

انتـهت المشـادةالصبـاحيـة بين أمـه وأخـتـه بالتـصـالح، ولكن مشاجرة بعد الظهر بين الأم والزوجـة لم تنتـه على خير. انقسم البـيت الى قـسـمين : أمـه وأخـواته الثـلاث فى جـبـهـة، وزوجتـه وأولاده الثلاثـة فى جبهة مضـادة. ظل يروح ويجئ بين الجبهتين حتى مـجيء الأب من عمله آخر النهار. انحاز الأب، كعادته، الى زوجته وبناته، فضـحك الابن ضـحكة غريبة مستسلمة وانضـم الى زوجته وأولاده. وعندمـا هدأت الأمـور نسـبيا، اختلى بنفسه ولف سيجارتين ثم انطلق الى بيت صديقه مرزوق سرور.

استقبله مرزوق بابتسامته العذبة الهادئة، وبعينيه الحمراوين العكرتين على الدوام. تنهد بعمق وأسى، هز رأسه مؤكدا بما لا يدع مـجـالا للشك على قـدرته الرائعـة، التى يـعرفـهـا صـديقـه

الجالس فى يأس، على ايجاد كل الحلول لكل المشاكل باعتباره خريج تجارة قديم وموظف بوزارة الاقتصاد بعد أن ألغوا وزارة التخطيط منذ زمن. كان مرزوق على علم تام بأزمة صديقه المالية التى تسببت فى مشاكل كثيرة، وأهمها أنها صرفته عن الحشيش وجعلته فى الأيام الأخيرة يتعامل مع علف المواشى. كان يعرف مشاكله مع الراتب، والمشاحنات الأسرية اليومية بين زوجته وأمه وأخواته العوانس ، وكان قد توصل منذ زمن بعيد إلى أن المشكلة فى الأساس اقتصادية سياسية أخلاقية اجتماعية مرتبطة بالواقع العام من ناحية، وبالأزمة العالمية الكونية من ناحية أخرى، الأمر الذى دفعه مرارا وتكرارا الى الالحاح على صديقه بالأخذ بنصيحته لحل جميع هذه المشاكل وعزلها ولو جزئيا عن الأزمة المحلية والعالمية، بل وفصلها عن الأزمة الحضارية والعولمة وكافة «الخربطات» الأخرى مثل التطبيع ونادى باريس وديون مصر وتصدير الغاز الطبيعى الى ليبيا عن طريق اليابان.

ابتلع مرزوق الدخان وكتم نفسه خابطا على صدره برفق وارتياح، بينما تكوّم الآخر على نفسه مستغرقا فى ضحكة

طويلة مرتخية بدون صوت.

قال مرزوق، نافخا خيط دخان رفيع، فى الحاح وجدية :

– اسمع كلامى.. اشتر جحش صغير..

خرج صوته من بين الضحكات والدخان هادئا مندهشا :

– فى الشقة يا عدو الله ؟!

– طبعا – قال مرزوق في جدية، وأضاف :

– ولازم يكون فى الشـقـة، وفى وسط هؤلاء الغـجـر أولاد الكلب.

– والفلوس ؟ – سأله صديقه بصوت حائر مرتخ .

– استلف، أو بع ذهب مراتك – قال مرزوق غامزا ثم أشعل السيجارة الأخيرة.

بعد فترة سأله مرزوق عن الأحوال. فأجابه بأنها زفت والحمد لله، وبأن الملعونة قلبت على رأسه الدنيا، ووصل بها الأمر الى طلب الطلاق. فناوله مرزوق سيجارة وسأله عن باقى الفلوس، ثم نصحه بشراء بقرة، وراح يعدد له فوائدها لجيش من المسعورين من أمثال أفراد أسرته اللعينة . وبعد يومين سأله بحكمة ووقار وهو يطفىء السيـجـارة الأخيرة عن الأحـوال، فـرد بضـيق :

قطران.. الله يخرب بيتك يا مرزوق. فراح يلح عليه بشراء خروف أو نعجة، وأخذ يشرح له كيفية الاستفادة من هذا الحيوان متعدد الفوائد في الأيام الضنك. وبعد أيام سأله عن الوضع، فصرخ بصوت مسطول : أسود.. الملعونة بنت الكلب سابت البيت وطفشت. وأضاف بأنه على استعداد للتضحية بنصف عمره في سبيل معرفة العلاقة بين انهيار الاتحاد السوفيتي وشراء الجحش والخروف والبقرة ووجود مشاكل في البوسنة والهرسك، بل وعلى استعداد للتضحية بالنصف الثاني من أجل معرفة العلاقة بين نادى باريس وشراء ديون مصر والتطبيع مع ولاد الجزمة.انصهرت ملامح مرزوق في ضحكة طويلة خافتة تخللها سعال شديد وقهقهات عالية حتى انهمرت الدموع من عينيه، ثم وضع طرف اصبعه على جبهته قائلا :

– مجمل هذه العلاقات واضح حتى للأعمى – أخذ نفسا عميقا، وناوله السيجارة ثم أضاف :

– كل شيء مرتبط ببعضه، وخصوصا حكاية نادى باريس هذه، لأن شراء ديون مصر من النادى سيوفر لنا الاستقلال في القرار، وامتلاك القدرة على حل المشاكل الاقتصادية في مواجهة

الغزو الاقتصادى الاسرائيلى، واذا تعذرت الأمور فيمكننا تصدير هذه الديون لاسرائيل واستيراد مفاعل ديمونة للأغراض السلمية وتجفيف الخضروات التى من شأنها سد جوع ستين مليون بطن - تناول السيجارة وأخذ نفسا عميقا - أن أمريكا حاليا تحاول أن ...

انطلقت ضحكة عالية من صديقه الجالس القرفصاء الذى ما لبث أن انقلب على ظهره وأخذ يتمرغ على الأرض وصوت ضحكاته يشتت الدخان المخيم عليهما. قال مرزوق مبتسما :

- أجمل شيء دلوقت هى الجوزة - وطوح ببقايا السيجارة من يده.

تعالت كركرات متقطعة يلفلفها دخان كثيف. قال مرزوق بدون مقدمات :

- اشترِ حمارا - واستغرق بجدية واضحة في تفسير أزمة المواصلات وعلاقة ذلك بأزمة صديقه الخاصة والمصاريف الزائدة، ثم انتقل مباشرة إلى أسباب أزمة التعليم فى افريقيا...

مرت عدة أيام. حضر الى مرزوق بوجه أحمر وعينين محتقنتين، وعروق رقبته تكاد تنفجر .

بادره دون تحية بصوت عاتب مترهل :

– ملعون أبو اليوم اللى شفتك فيه..

ضحك مرزوق مقدما اليه سيجارة ضخمة، وراح يشعل الفحم فى الموقد ، ثم سأله عن سبب غيبته الطويلة ، فأجاب :

– الأولاد راحوا لأمهم، وأبويا طلب لى المخبرين .

– يعنى كنت فى قسم البوليس ؟ تساءل وكأن الأمر لا يعنيه، وراح يشد نفسا قويا لاشعال النار فوق الحجر الأول. طقطق الفحم المتوهج على صوت الكراكرات المتواصل، ناوله مرزوق الجوزة قائلا:

– بع كل شىء وبسرعة ..

– مش فاهم ؟! – تساءل الصديق مندهشا .

– بعدين حاتفهم.. وحاتعرف أجوبة الأسئلة الصعبة – قال مرزوق مشيرا بسبابته الى رأسه.

فى مساء اليوم التالى ، أقبل صاحبنا فى غاية السرور والانشراح على مرزوق الذى بادره مستفسرا عن الأوضاع. أخرج قطعة حشيش كبيرة، وقال متنهدا :

– الحمد لله .. هم وانزاح يا راجل . مساء العنب .

المحتويات

المؤلف

صدرله:

١ – قصيدة سرمدية فى حانة يزيد بن معاوية – مجموعة قصصية – دار النهر ١٩٩٦.

٢ – خرابيش – مجموعة قصصية – دار النهر ١٩٩٧.

صدر مؤخرا من هذه السلسلة

* السلسلة غير ملزمة برد أصول الأعمال سواء نشرت أم لم تنشر.

* ترتيب النشر يخضع لاعتبارات فنية.

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلي سابقاً)



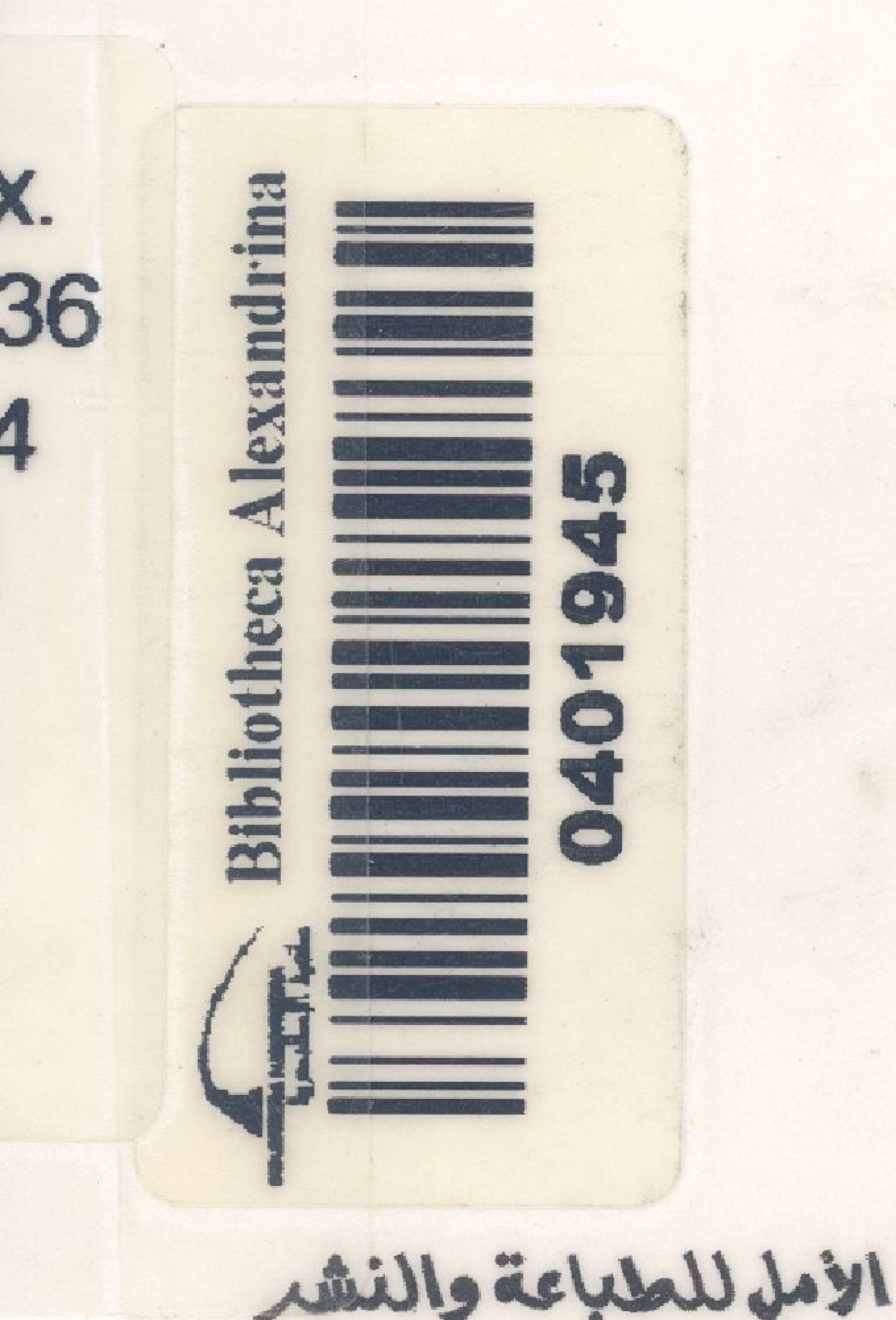
إبداعات ١٥٧

أشرف الصَبَّاغ

العطش

تصور هذه القصص عالم الأطفال المشردين الذين وجدوا أنفسهم فى العالم هكذا، دون أهل يقدمون لهم الحماية والطعام والدفء العائلى والمستقبل، هم أطفال الهامش المهمل، أطفال الشوارع والمحطات والقطارات والليل والبرد والفقر.

الكاتب يصور هذا العالم بعين خبير، وهو دقيق فى اختيار الزوايا التى تبرز موضوعه، لديه قدرة عالية على التقاط أدق التفاصيل.



خمسون قرشاً

الأمل للطباعة والنشر